مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، المجلد (٣)، العدد (٢)، ص ص ٢٩٣-٣٢٥، (يوليو ٢٠١٠م/رجب ١٤٣١هـ)

جدلية الصمت والكلام في التراث العربي

د.عبدالله بن سالم الخلف

أستاذ الأدب المساعد، كلية العلوم والآداب بالرس

Ask1373@yahoo.com

(قدم للنشر في ١٤٣٠/٢/٢٣هـ؛ وقبل للنشر في ١٤٣٠/٧/٩هـ)

ملخص البحث. في عصرنا الحاضر فتحت أبواب واسعة أمام الكلمة، وأصبحت حرية التعبير من الحقوق الأساسية التي تكفلها دساتير الدول. ولابد لتراثنا الثقافي من أن يلقي بظلاله على الآراء المتداولة في هذه القضية في المجتمعات الإسلامية، ويؤثر فيها.

وقضية الكلام والصمت من القضايا الجدلية التي انقسمت فيها الآراء منذ وقت مبكر؛ حيث نلاقي كثيرا من المأثورات التي تؤيد هذا الموقف أو ذاك. وبالنظر فيما كتب في الموضوع أو قيل فيه، نجد الأكثرية تميل إلى تأييد الصمت. في حين أن هناك من وقف موقفا وسطا، أو اكتفى بنقل أقوال الطرفين دون تأييد لأي منهما.

ويعد الجاحظ من أوائل الذين كتبوا في هذا الموضوع، فقد طرقه في غير موضع من كتبه مؤيدا للكلام غالبا. ونرى معاصرا له هو ابن أبي الدنيا يتبنى الموقف المضاد، ويؤلف رسالة يحشد فيها عددا كبيرا من المأثورات المؤيدة للصمت. ويدل ما كتب خلال الفترة الأولى من العصر العباسي على قوة الصوت المؤيد للصمت، ثم ازداد ذلك قوة مع مرور الزمن واتجاه الأمة نحو الضعف. فالمعري يدعو إليه لأسباب نفسية أو فلسفية، وأبو حامد الغزالي يرى من منطلقات صوفية انسحابية أن ثلاثة أرباع الكلام لا خير فيه والباقي لا يسلم من الخطر.

وبينما يرى مؤيدو الكلام أنه أمر سلبي وتعطيل لنعمة وهبها الله للإنسان، وأنه لولا الكلام لفقد الإنسان ثروته المعرفية وكثيرا من إنجازاته، فإن هاجس الخوف والحذر المنبعث من أسباب دينية أو سياسية أو اجتماعية، كان هو الحجة الكبرى لمؤيدي الصمت. وقد تمكنت قوة الدفع الحضاري في القرون الأولى من التغلب على بعض الآثار السلبية المتوقعة للتخويف من الكلام، ومع تلاشي تلك القوة واتجاه الأمة نحو الضعف، بدأت هذه الآثار تظهر بشكل أوضح على المشهد الحضاري، وتمثل ذلك بشكل خاص في ضمور الحركة الإبداعية، وتدهور المشهد السياسي.

مقدمة

الكلمة تلك المنحة الإلهية والميزة الإنسانية، تلك الطاقة الهائلة التي يمكن أن تنطلق للبناء إذا أحسن استخدامها، وتتجه نحو الهدم والتدمير إذا حدث نقيض ذلك. لقد فتحت في عصرنا الحاضر أبواب واسعة أمام الكلمة، وأصبحت حرية التعبير من المبادئ الرئيسة، والحقوق الأساسية التي تكفلها دساتير الدول، وتدعو إليها منظمات حقوق الإنسان مع ما يترتب على هذه الحرية من مسؤولية أمام القانون. ومع أن هذه الحرية لم تخل من الآثار السلبية، فقد كان لها آثارها الإيجابية في مجالات عدة. لكن الأمر لم يكن سهلا، ولا تزال تواجهه مشكلات كبيرة، فليس هناك حرية مطلقة لمن يريد الكلام؛ لأن حرية الإنسان تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين؛ فإيذاء الغير، أو اتهامهم بغير حق، أو النيل من معتقداتهم ومقدساتهم خطوط حمراء، وقضايا شائكة، لا تزال تثير جدلا واسعا.

والغرض من هذا البحث محاولة استكشاف المواقف المختلفة من هذه القضية في تراثنا، والأسباب الكامنة وراء تلك المواقف، وتلمس آثار ذلك على الحياة الثقافية، ولاسيما حركة الإبداع وحرية التعبير في المجالات المختلفة. لذلك كان هناك حاجة للإكثار من الشواهد التي تحكي آراء الأطياف المختلفة؛ فالبحث يهتم بحالة ثقافية عامة، ولا يقتصر على فئة معينة، ولا على فترة محددة.

لقد تناول كثير من العلماء والأدباء والمفكرين موضوع الكلام والصمت، موازنين بينهما، أو مقتصرين على ذكر بعض ما ورد فيهما من أقوال وحكم وأمثال وحكايات. ولم يكن الأمر دائما على شكل مساجلات وجدال بين فريقين، ولكنها أقوال وحجج يدلي بها أصحابها في مناسبات وسياقات مختلفة، معبرين عن آرائهم، أو عن مواقف مرت بهم .

وكان من أوائل من كتب في هذا الموضوع أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(-٢٥٥هـ) [١] في كتابه البيان والتبيين، وفي رسالته في تفضيل النطق على الصمت، التي وقف فيها بقوة مع مؤيدي الكلام. ومقابل هذا نجد معاصرا له هو عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (-٢٨١هـ)، الذي كرس كتابه الصمت وآداب اللسان للحديث عن فضيلة الصمت، وأهمية حفظ اللسان. ثم تتابع المؤلفون الذين تناولوا هذا الموضوع، وغلب على كثير منهم ترديد كلام السابقين وآرائهم، و نقل ما ورد عنهم، من أقوال وأشعار وحكايات، مكتفين بهذا السرد، أو معلقين عليه تعليقات قصيرة. وقد يتبنى المؤلف موقفا ممالئا لهذا الرأي أو ذاك، ويؤيد كلامه بأقوال العلماء والحكماء والزعماء والشعراء. وقد يقتصر على أفضلية الصمت وفوائده العديدة، وأضرار الكلام وعواقبه الوخيمة. ومن هؤلاء الذين غلب على مؤلفاتهم سرد النصوص وعرض الآراء، دون أن يتبنوا موقفا واضحا محددا. ابن قتيبة(-٢٦٧ هـ) في عيون الأخبار، وإبراهيم بن محمد البيهقي(-نحو ٣٢٠ هـ) في المحاسن والمساوئ، وابن عبدربه(-٣٢٧ هـ) في العقد الفريد، وابن حبان البستي(-٣٥٤ هـ) في روضة العقلاء، وأبو إسحاق الحصري القيرواني(-٤٣٥هـ) في زهر الآداب، وابن عبدالبر(-٤٦٣هـ) في بهجة المجالس، والراغب الأصفهاني(-٥٠٢هـ) في محاضرات الأدباء،

---

(١) وردت أسماء كثير من الأعلام في البحث، بعضهم لا تعرف سنة وفاته، وبعضهم مختلف فيها. وقد اكتفيت بذكر تواريخ وفيات الذين ألفوا في هذا الموضوع، أو كان لهم فيه موقف، أو رأي متميز.

وأسامة ابن منقذ(-٥٨٤ هـ) في لباب الآداب، وغيرهم. وربما كان السبب في عدم تأييد هؤلاء لرأي محدد أن طبيعة مؤلفاتهم التي تعرضوا فيها للمسألة كانت تقوم على الجمع والعرض، أو أنهم نظروا إلى الأمر من أكثر من زاوية، فرأوا أن الكلام هو الأفضل في بعض المواضع، والصمت أفضل في أخرى، ورأوا أن ما جمعوه من أقوال كاف للتعبير عن الحالين.

وقد كانت كفة الصمت فيما ذكروه هي الراجحة، والنصوص التي أوردوها في فضله هي الأكثر. وهو أمر يدل بلا شك على مدى وفرة المرويات التي تدعم ذلك الاتجاه، ويعكس شيوع القناعة به، وربما يدل على ميل بعض المؤلفين إليه، حتى ولو لم يصرحوا بذلك.

وكان من أبرز الذين أدلوا برأيهم في هذه المسألة، وأطالوا الكلام فيها، وتبنوا فيها موقفا واضحا أبو حامد الغزالي (-٥٠٥هـ)، في كتابه إحياء علوم الدين، الذي انتصر فيه للصمت بقوة، كما سنبين فيما بعد.

وليس المهم فقط آراء هؤلاء المؤلفين؛ بل الأهم من ذلك أن ما أوردوه من أقوال وآراء ومواقف هي لعدد كبير من الناس من أجيال متلاحقة مما يعطيها طابعا عاما، أشبه بالرأي الجماعي المتداول عبر القرون، ويؤكد أنها ليست آراء خاصة لفئة محدودة.

أما الشعراء فقد طرق الكثير منهم هذا الموضوع، ولاسيما شعراء الحكمة والزهد الذين يصوغون عباراتهم غالبا على شكل حكم تشيد بالصمت وحفظ اللسان، وتحذر من عواقب الكلام. هذا إلى جانب إرث الأجيال السابقة من الحكم والأمثال التي تناقلها الناس جيلا بعد جيل، والتي يصب معظمها في تيار الحث على السكوت، والتخويف من زلات اللسان.

ولابد لتراثنا الثقافي في هذا المجال من أن يلقي بظله، ويرمي بسهمه في تكوين الرأي الحديث في مجتمعاتنا العربية والإسلامية حول هذه القضية، ويصبح مصدرا للتأثير عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فالذاكرة الجماعية تختزن كما هائلا من الأقوال والآراء والمواقف والحكايات التي لابد من أن تتسلل إلى عقلنا الباطن، وتسهم في تحديد مواقفنا ولو بطريقة لا شعورية؛ الأمر الذي سوف ينعكس على آرائنا في هذا المجال، و ويؤثر في صياغة منتجاتنا الفكرية وأنظمتنا ومناهجنا وأساليبنا التربوية؛ لذلك كان من المهم إلقاء الضوء على هذا التراث وتحليله، وبيان ما فيه من جوانب سلبية أو إيجابية، ليكون تأثيره إيجابيا واعيا، قائما على المحاكمة والتحليل والانتقاء، وليس قوة ضاغطة تفرض نفسها، لمجرد اكتسابها التقادم و والرسوخ في الذاكرة الجماعية.

تأييد الكلام

في أمة أمية اعتمدت في تداول منتجها الثقافي على المشافهة، واعتدت بالفصاحة والبيان، وعدتهما من أهم مقومات الشخصية المتميزة، نجد الإشادة بالقدرة البيانية واللسان الفصيح شائعة في أدبها شعرا، ونثرا يفتخر بها المفتخرون، ويمدح بها الممدوحون. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من البيان سحرا ." [١، ص٥٩٤] وقال يونس بن حبيب :"ليس لعيٍّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو بلغ يافوخه أعنان السماء." [٢،ج١، ص٧٧]؛ ولذلك تبرأ يحي بن سعيد من العي و الخنا فقال: [٢،ج١، ص٤]

وما بي من عي ولا أنطق الخنا إذا جمع الأقوام في الخطب محفل

ويفتخر الفصحاء بمهارتهم في الكلام وخلب ألباب السامعين. فهذا زرارة بن جزء يذكر

موقفه أمام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وما وفق إليه من الكلام البليغ، فيقول : [٢،ج١ ص١٤٧]

أتيت أبا حفص ولا يستطيعه من الناس إلا كالسنان طرير
فوفقني الرحمن لما لقيتــه وللباب من دون الخصوم صرير
قروم غيارى عند باب ممنع تنازع ملكا يهتدي و يجــور
فقلت له قولا أصاب فؤاده وبعض كلام الناطقين غــرور

ويباهي شبة بن عقال بأدائه البياني فيقول: [٢،ج١ ص١٢٧]

ألا ليت أم الجهم والله سامع ترى حيث كانت بالعراق مقامي
عشية بذ الناس جهري ومنطقي وبذ كلام الناطقين كــلامي

ومدحوا الكلام البليغ، وأشادوا بصاحبه. قال رجل من طيء: " هذا الكلام يكتفى، بأولاه ويشتفى بأخراه. "[٣،ج٢ ص٢٧١] ووصف أعرابي بليغا فقال:"كأن الألسن ريضت فما تنعقد إلا على وده، ولا تنطق إلا ببيانه." [٣،ج٢ص٢٦٦] وقال معاوية في عبدالله بن عباس [٣،ج٢ص٢٧٠]:

إذا قال لم يترك مقالا ولم يقف لعي ولم يثن اللسان على هجر
يصرف بالقول اللسان إذا انتحى و ينظر في أعطافه نظرة الصقر

وأصبح اللسان، بوصفه أداة للبيان، رمزا للسؤدد والمكانة العالية بين الناس. قال أبو العتاهية في مدح الفضل بن الربيع: [٤،ج ١٨ص٣٠٧]

وأنت جبين الملك بل أنت سمعه وأنت لسان الملك حين تقول

وقال أبو ليلى المجاشعي يرثي الفرزدق: [٤،ج٢١ص٣٨٩]

لســان تميم كلها وعمادها وناطقها المعروف عند المخنق

وكان الوقوف على المنابر من الصفات الجليلة التي أسبغوها على الممدوحين. قال زياد الأعجم: [٥،ج١ص٢٣٣]

إن المنابر أصبحت مختالة بمحمد بن القاسم بن محمد

ودخل يحيى بن أبي حفصة على الوليد بن عبد الملك لما بويع له بالخلافة بعد أبيه، فهنأه وعزاه وأنشده: [٤،ج١٠ص٧٥]

بكت المنابر يوم مات وإنما بكت المنابر فقد فارسهنه

وقال أبو العباس الأعمى: [٥،ج١٦ص٢٩٧]

خطباء على المنابر فرسان عليها وقالة غير خرس ويمدح طحلاء معاوية فيقول : [٢،ج١ص١٢٧]

ركــوب المنابر وثابها معــن بخطبته مجهر
تريع إليه هوادي الكلام إذا ظل خطبته المهذر

ويعقد كثير من مؤلفي كتب الأدب فصولا للحديث عن البلاغة والبلغاء، يشيرون فيها إلى صفات الكلام البليغ، مستشهدين بأشعار وحكايات تبين ماللبلاغة وأصحابها من مكانة عند العرب.

لكن هذا الحديث لم يكن المقصود به الإشادة بمبدأ الكلام والتعبير عن الرأي، وأهمية الانطلاق والجرأة في الحديث عن الموضوعات المهمة و الحساسة؛ بل كان إشادة بالمقدرة الكلامية، وبلاغة التعبير. وهو بلا شك يشير إلى الوعي بأهمية الكلمة، ودورها الحساس في

صياغة المجتمع، وضرورة العناية بها، وإلى مكانة الذين يمتلكون القدرة البيانية. أما مبدأ الكلام، وتفضيله على الصمت أو العكس، فكانت تعقد له فصول أخرى، من أبرزها ما كتبه الجاحظ في البيان والتبيين، وفي رسالته التي أشرنا إليها سابقا.

حجج مؤيدي الكلام

كانت حجج مؤيدي الكلام متداخلة مع بعضها، وتبدو في مجملها أقل تفصيلا من حجج مؤيدي الصمت. وكانت الحجة الأبرز والأقوى لهم هي أن الصمت أمر سلبي لا يقوم بذاته، ولابد من الكلام للتعبير عنه، وأن قصارى ما فيه السلامة، وأن الكلام هو الأصل، وهو الأداة التي يمكن من خلالها التعبير عن حاجات الإنسان ومشاعره وأفكاره، حتى رأيه في فضل الصمت. قال أبو مسهر: "إن النجم ليس كالقمر، إنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام بالصمت." [٦،ج٢ص١٧٥] وقال ربيعة الرأي:"الساكت بين النائم والأخرس." [٦،ج٢ص١٧٥] وقال بكر بن عبدالله المزني "طول الصمت حبسة." [٦،ج٢ص١٧٦] وقال عبد الملك بن مروان:"الصمت نوم والنطق يقظة." [٧،ج١ص٥٥].

وكانت النزعة الإيجابية التفاعلية، والهاجس العلمي والفكري هو الغالب على هؤلاء." ذكر عند الأحنف بن قيس الصمت والكلام، فقال قومٌ: الصمت أفضل فقال الأحنف: الكلام أفضل لأن الصمت لا يعدو صاحبه، والكلام ينتفع به من سمعه، ومذاكرة الرجال تلقيحٌ لعقولها." [٧،ج١ص٥٤]، وقال أبان بن سليم:" كلمة حكمة لك من أخيك خير لك من مال يعطيك." [٧،ج١ص٥٤]. ولذلك عدوا الصمت سبيلا إلى الجهل، وتعطيلا للعقل، ومفسدة للسان. قيل لبعضهم:"الصمت مفتاح السلامة، فقال: ولكنه قفل الفهم." [٨،ج١ص٦٨] وقيل لزيد بن علي:"الصمت خير من الكلام. فقال: لعن الله المساكتة فما أفسدها للسان، وأجلبها للحصر." [٨،ج١ص٦٨]، وقال بشار: [٩،ص٥٧٩]

شفاء العمى طول السؤال وإنما تمام العمى طول السكوت على الجهل

ويرون أن الكلام هو الذي يبرز مكانة الإنسان ومقدرته، وأن الصمت تعطيل للسان. "ذم قوم في مجلس سليمان بن عبدالملك الكلام، فقال سليمان: اللهم غفرا، إن من تكلم فأحسن قدر أن يصمت فيحسن، وليس من صمت فأحسن قادرا على أن يتكلم فيحسن." [٦،ج١ص١٧٦] ومن ذلك قول الشاعر: [٨،ج١ص٦٨] (٢)

خلق اللسان لنطقه وبيانه لا للسكوت، وذاك حظ الأخرس
فإذا جلست فكن مجيباً سائلاً إن الكلام يزين رب المجلس

ويرى أحمد بن محمد المرسي أنه ينبغي للإنسان أن يتفاعل مع من حوله، ولا يلتزم الصمت، حتى لو كانت قدرته على الكلام متواضعة: [١٠،ج٢ص٦٠٤]

ولا تكثر الصمت في معشر وإن زدت عيا على باقل

أما مؤيدو الصمت فقد كان الهاجس الديني أو السياسي أو الاجتماعي هو الغالب عليهم.

---

(٢) لم أقف على قائله.

وبعبارة أخرى كانت الخشية من مخالفة التعاليم الدينية التي تحظر بعض أنواع الكلام، والخوف من عواقب الكلام وآثاره التي يرون أنها قد تنعكس سلبا على الفرد أو الوضع الاجتماعي أو الكيان السياسي هو الأساس الذي بنوا عليه مواقفهم. وكان الهدف الظاهري والمحور الذي دارت حوله الأقوال و الآراء هو ترشيد الكلام، فكثير ممن يؤيدون الكلام لا يرون ذلك مطلقا وبدون استثناء، بل يرون أن الصمت في بعض الأحيان أفضل .

ويعد الجاحظ أبرز المنافحين عن مبدأ الكلام، الرادين على مؤيدي الصمت، وقد بدا أنه فهم من موقفهم أنه دعوة إلى وأد الإبداع، وكبت إرادة التعبير. فبعد أن أسهب في الحديث عن البيان والبلاغة، عرض وجهة النظر الأخرى، ثم توجه إلى الناشئة مشيرا عليهم بعدم الالتفات إلى كلامهم، فقال:"قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم، وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ...الخ" [٢،ج١ص٢٠٠] ،واحتج على ذلك بالآيات والأحاديث والأقوال المضادة، كقوله تعالى عن داود (عليه السلام):"و آتيناه الحكمة وفصل الخطاب" وقوله(صلى الله عليه وسلم) عن شعيب(عليه السلام):"كان شعيب خطيب الأنبياء. " وأنه كان لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) شعراء ينافحون عنه وعن أصحابه، ورد على ما أوردوه من أحاديث في ذم البيان ومدح العي بأنها إما أن تكون فهمت على غير المراد منها، أو أنها مدخولة معلولة، لا تثبت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم). [٢،ج١ص٢٠٢،٢٠٠] ثم عاد مرة أخرى إلى ذكر ما ورد في الصمت مبتدئا بقوله:"وقال المعترض على أصحاب البلاغة والخطابة:..." [٢،ج١ص٢٦٩] وعقب على ذلك قائلا:" قال صاحب البلاغة والخطابة، وأهل البيان و حب التبيين:..." [٢،ج١ص٢٧١] .

لقد عقد الجاحظ ما يشبه المناظرة بين مؤيدي الصمت ومؤيدي الكلام. مناصرا دعاة الكلام بقوة ولكن باتزان، إذ أنه لا يؤيد إلا الكلام البليغ الموزون: "فأما ما ذكرتم من الإسهاب والتكلف، والخطل، والتزيد، فإنما يخرج إلى الإسهاب المتكلف، وإلى الخطل المتزيد." [٢،ج١ص٢٠١] فهو يرى أن التوسط بين العي والهذر هو الحالة المثلى [٢،ج١ص٢٠٠] و أن الكلام أشبه بالغريزة، وعن طريقه نقلت أخبار الماضين. كما يرى أن العقل إنما سمي عقلا وحجرا لأنه يزم اللسان ويخطمه[١١،ج١ص١٤٣،١٤١].

وفي رسالته في تفضيل النطق على الصمت، رد بقوة على من فضل الصمت بنبرة تشي بشيوع قوله بين الناس، وكثرة حججه، وتماديه في الدفاع عن رأيه:"قد قرأت كتابك فيما وصفت من فضيلة الصمت، وشرحت من مناقب السكوت، ولخصت من وضوح أسبابهما، وأحمدت من عاقبة منفعتهما، وجريت في مجرى فنون الأقاويل فيهما". إلى أن قال:"وأتيتُ _حفظك الله_ على جميع ما ذكرت من ذلك، ووصفت ولخصت، وشرحت و أطنبت فيها وفرطت في الفهم ." [١١،ج٤ص٢٣٠،٢٢٩] ثم شرع في الرد على أقواله، وتفنيدها، و إيراد ما يضادها، حتى أتى على معظم ما احتج به مؤيدو الصمت والكلام، مما استنبطه بنفسه أو استقاه ممن سبقه.

ويتلخص ما اعتمد عليه في أن الله سبحانه ورسوله (صلى الله عليه وسلم) أثنيا على البيان ، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) استخدمه في حربه مع خصومه، كما كان هو وخلفاؤه من بعده خطباء متكلمين، ولو كان في مواقف الكلام والخطابة رياء وسمعة كما يزعم بعضهم، لاستحق هذا الوصف أمثال علي وابن عباس والحسن البصري وغيرهم من الأئمة رضي الله عنهم.كما أنه لا يتم إيمان الإنسان، ولا يمكن القيام بكثير من الأعمال الدنيوية والأخروية،

كالصلاة والذكر وطلب الحاجات وإصلاح ذات البين، بدون الكلام، ولولاه لما تبين الحق في كثير من المواضع، ولما عرف الفاضل من المفضول، والعالم من الجاهل. ولهذا لم يصمت إبراهيم (عليه السلام) لما سئل عمن حطم الأصنام، ولا يوسف(عليه السلام) أمام العزيز. والكلام هو الذي يميز الآدمي عن الحيوان. أما الصمت فهو أمر سلبي لا يمكنه أن يعبر عن نفسه، وفضله مقصور على صاحبه، وهو يؤدي إلى موت الخواطر، وتبلد النفس، وفساد الحس، و تعقد اللسان. ويرى أن المنطق (الكلام) في استخدامه على ثلاث درجات: استخدامه في الخير، وهذا يشبه من له مال يتصدق به، وعدم استخدامه، وهذا يشبه من له مال يبخل به، واستخدامه في الشر، وهذا يشبه من له مال ينفقه في الشر، فاجتمع عليه الإثمان. [١١،ج٤ص٢٢٩]

ويلاحظ أنه انطلق في حديثه عن هذا الموضوع من منطلق مبني على أساس ديني، وأن الحجج الدينية كانت لها الكلمة العليا. وهذا يدل بوضوح على أن القضية شديدة التلبس بالدين عندهم، ومن يملك الحجة الدينية الأقوى يكون صوته هو الأعلى. وهذا ليس غريبا فطبيعة المجتمع الدينية تجعل المرجعية الدينية هي الأقوى، والأكثر تأثيرا. ولكن الجاحظ، وعلى الرغم من أن قاعدة الاحتجاج لديه كانت مبنية على النصوص المأثورة، لم يكتف بمجرد السرد وذكر الأقوال؛ بل اعتمد على توجيه الحجج توجيها عقليا، ووظف الآثار النقلية المؤيدة لموقفه، في حين لجأ إلى تأويل النصوص النقلية المضادة، أو أنكر صحتها. وكان ينظر إلى الأمر من منظور عقلاني عملي واقعي، متأثرا بعقلانيته، وكونه واحدا من أبرز الأدباء وأصحاب الكلام في عصره. فهو يوظف الكلام، وينظر إلى الوجه الإيجابي التفاعلي من الدين، بخلاف بعض دعاة السكوت الذين غلب عليهم الجانب الاحترازي والحذر الذي يؤثر السلامة، ويخشى من العواقب.

وعلى الرغم من أنه أشار إلى أهمية شرح الإنسان لموقفه، كما في قصة إبراهيم (عليه السلام)، وتعبير الإنسان عن نفسه، كما في قصة يوسف (عليه السلام)، وحث الموهوبين على تنمية مواهبهم، [٢،ج١ص٢٠٠] فإنه لم يتعرض بشكل واضح ومباشر إلى جوانب مهمة أخرى،كقول الحق أمام ذوي القوة والسلطان، ونصرة المظلومين، أو التعبير عن الرأي ولو كان مصادما للآراء السائدة.كما أن موقفه بشكل عام ليس مناقضا تماما لموقف دعاة الصمت؛ فهو يوافقهم على أفضليته في بعض المواضع،كما ذكرنا، بل إنه أفرد لهذا الموضوع رسالة خاصة هي رسالة "كتمان السر وحفظ اللسان". وهي رسالة تثير العجب والتساؤل، لأنها تظهره بمظهر من يناقض نفسه، ولأن من يقرؤها يكاد يحكم بأنه من أنصار السكوت وطلب السلامة. ولكن لعل لولعه بالجدل والمناظرة، وعرض مهارته في الاستدلال على الشيء ونقيضه، وقدرته على إفحام الخصم أثرا فيما يبدو كأنه اختلاف في الموقف.كما هو حاله وموقفه من قضايا أخرى؛ حيث تبنى مواقف متعارضة في مواضع مختلفة.[٣] وربما يكون قد كتب هذه الرسالة متأثرا بعلاقته مع

---

(٣) انظر مثلا موقفه من المعلمين، في كل من البيان والتبيين[٢،ج١ص١٤٨]، وكتاب المعلمين ضمن رسائل الجاحظ[١١،ج٢ص٢٥]. ورأيه في الزنج، في كل من البيان والتبيين [٢،ج١ص١٣٧]، و كتاب فخر السودان على البيضان، ضمن رسائل الجاحظ [١١،ج٣ص١٧٣].

بعض رجال الحكم والسياسة، كما فعل في غيرها[٤]. ولاسيما أنه تحدث فيها عن نقد الرعية للحكام، منكرا ذلك وعادا إياه من الغيبة المحرمة التي لا يكاد ينجو منها إلا من رجح حلمه، وعظمت مروءته، وظهر سؤدده، واشتد ورعه.

ولم أجد من يوازي الجاحظ في تبنيه تأييد الكلام، وقوة طرحه القضية. والغريب أنه يكاد ينفرد بذلك من بين أهل الكلام من المعتزلة وأمثالهم. فلم أطلع على طرح قوي واضح لهم في هذه المسألة يقارب طرح الجاحظ، على الرغم من أنهم أصحاب الجدل والمناظرة والبحث والتنقيب. والكلام هو أداتهم، ولا مكان للصمت عندهم. وربما يكون ما صدر منهم قد ضاع فيما ضاع من تراثهم، أو أنهم لم يولوا هذه القضية عناية تذكر؛ لأنها كانت عندهم من بدهيات الأمور. مع أنه لا ينبغي أن نغفل عن أنهم، وإن كانوا أكثر انفتاحا على الثقافات الأخرى، إلا أنهم لم يكونوا من أنصار حرية الكلمة، ولم يكونوا مقتنعين بحرية الرأي؛ فقد كان حق الكلام عندهم مقصورا على من يتبنى آراءهم؛ ولذلك اضطهدوا خصومهم، ومنعوهم من التعبير عن معتقداتهم.

وربما يكون لتحالفهم مع رجال الحكم الذين لا يحبذون حرية التعبير، دور في عدم وجود آثار واضحة لهم في هذا الموضوع.

تأييد الصمت

على عكس ما رأيناه من قلة المؤيدين للكلام، وقلة ما ورد في تفضيله من الأقوال [٥]سنرى كثرة المخالفين لهم ، وحشدا كبيرا من المأثورات التي تؤيد هذا الموقف. فابن أبي الدنيا مثلا يورد (٧٥٩) أثرا في فضل الصمت،في كتابه الصمت وآداب اللسان، بعضها ينص نصا واضحا على فضله، وبعضها يدور حول أمور أخرى متعلقة به كالتحذير من الغيبة والنميمة والكذب وإفشاء السر ونحو ذلك. و هي آثار منقولة عن الأجيال السابقة عبر ما يقارب ثلاثمائة سنة، فهي بذلك تعبر عن رأي متجذر ممتد عبر القرون. وقد قام جلال الدين السيوطي(- ٩١١هـ) باختصار هذا الكتاب بحذف مالا يتعلق مباشرة بالصمت، وأضاف إليه مجموعة من النصوص الشعرية، فبلغ مجموع ما أورده (١٢١) نصا وسماه حسن السمت في الصمت. واقتصر عمل كل من ابن أبي الدنيا والسيوطي على الجمع دون مناقشة أو تحليل أو إضافة.

أما أبو حامد الغزالي، (- ٥٠٥هـ) الذي يعد من أكبر المنافحين عن الصمت، المهاجمين

---

(٤) انظر مثلا رسالة مناقب الترك، ضمن رسائل الجاحظ [١١،ج١ص٣٩] التي وجهها إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل التركي، وأثنى فيها على المعتصم الذي جلب الترك واتخذ منهم جندا للخلافة.

(٥) هذا ما اتضح لي. ويمكن أن نلاحظه بسهولة عندما نوازن بين ما أوردته المراجع تحت كل من الموضوعين . وعلى الرغم من أن الجاحظ ذكر أن الأقوال الواردة في تفضيل الكلام "أكثر من أن يبلغ آخرها، ويدرك أولها." تفضيل النطق على الصمت، ضمن رسائل الجاحظ [١١،ج٤ص٢٢٣] إلا أنه لم يذكر منها إلا القليل إذا استثنينا الأقوال غير المباشرة التي وردت في فضل المقدرة البيانية والكلام البليغ.

للكلام، ومن أكثرهم تأثيرا، فقد سلك في تأييده للصمت نهجا آخر؛ فلم يكتف بإيراد الآثار؛ بل انبرى للدفاع عن الصمت، وحشد الحجج والبراهين المؤيدة لرأيه، حتى أسقط ثلاثة أرباع الكلام، وعدها مما لا خير فيه؛ أما الربع الباقي فقال فيه:"وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجا يخفي دركه فيكون به الإنسان مخاطرا." [١٢،ج٣ص١١١] و مضى بعد ذلك يعدد آفات الكلام حتى أوصلها إلى عشرين آفة، مع الإطالة في شرحها و الاحتجاج لها. [١٢،ج٣،من ص١١٢إلى ص١٦٣]

ومن الملاحظ أن العبارات التي قيلت في فضل الصمت وحفظ اللسان من حكم وأمثال وأشعار أشهر وأسير مما قيل في فضل الكلام. (٦) كما يلاحظ أيضا أن كثيرا من مفضلي الصمت يربطون بينه وبين الحكمة، فيصفون الحكماء والشيوخ المجربين بالسمت وحسن الصمت وطول السكوت. ويعدون ذلك من صفات الكمال التي يضفونها على المترجمين، فيقولون مثلا "كان حاتم رجلا طويل الصمت." [١٣،ج١ص٢٤٢] "كان من أهل السنة، طويل الصمت." [١٤،ج١٩ص٢٠٥] "كان كثير الصمت مفرط الانقباض والعزلة." [١٠،ج٦ص٤٩٢] "كان عطاء يطيل الصمت." [١٥،ج٥ص٨٣] وللجاحظ في مدح أحمد بن أبي دؤاد: [١٤،ج١٦ص٨١]

حسن الصمت والمقاطع إما نطق القوم والحديث يدور

والصامت يكتسب من صمته الحكمة و الوقار والهيبة: "بكثرة الصمت تكون الهيبة." [٥،ج١ص٢٧] "الصمت زين العاقل وستر الجاهل." [٨،ج١ص٦٩]"الصمت حكمة وقليل فاعله." [١٦،ص١٦] "استكثر من الهيبة الصموت."[٣،ج٣ص٨٢] "الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت." [١٦،ص١٣] "أجمعت الحكماء أن رأس الحكمة الصمت." [١٧،ص٣٣٨] "زين الحكيم الصمت." [١٧،ص٣١٦]

وكن رزينا طويل الصمت ذا فكر فإن نطقت فلا تكثر من الخطب [١٨،ص٢٧٦] (٧)

وهذا الربط بين الصمت والحكمة لاشك في أن المقصود منه تعزيز الحكم بأفضلية الصمت من جانب، ووسم المخالفين له من مؤيدي الكلام بالطيش والخفة وقلة الحكمة.

ومن الربط بين الصمت والحكمة نسبة بعض الأقوال التي تؤيد الصمت إلى المشهورين بالحكمة كداود وسليمان (عليهما السلام) ولقمان الحكيم وغيرهم.

وإذا كان هؤلاء يجعلون الصمت سمة من سمات الحكمة، وعلامة من علاماتها؛ فإن مخالفيهم يقولون إنه قد يكون دليلا على العجز والعي وضعف العقل. يقول أبو العلاء المعري: [١٩،ج٢ص١٥٨]

قد يحسب الصمت الطويل من الفتى حلما يوقر فيه وهو تخلف ويأتي ذلك أيضا من خلال بعض القصص والحكايات حول بعض من يطيلون الصمت؛ فإذا نطقوا تبين أنه ليس وراء صمتهم إلا الحمق والغباء. فكيف يكون الصمت إذاً دليلا على الحكمة. ومن ذلك حكاية رجل كان

---

(٦) أمثلة :(من صمت نجا .الصمت حكمة وقليل فاعله .لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب .للحيطان آذان . مقتل الرجل بين فكيه. كم من دم سفكه فم. كم إنسان، أهلكه لسان. رب حرف، أدى إلى حتف. لا تفرط، فتسقط. الزم الصمت، وأخف الصوت...).

(٧) لم أقف على قائله.

يجلس إلى أبي حنيفة " يطيل الصمت، فأعجب ذلك أبا حنيفة وأراد أن يبسطه، فقال له: يا فتى ما لك لا تخوض فيما نخوض فيه؟ فقال الفتى: متى يحرم على الصائم الطعام؟ فقال أبو حنيفة: أنت رجل أعرف بنفسك." [٢٠ص١٤٩] "وكان فتًى يجالسُ الشَّعبي، وكان كثيرَ الصَّمت، فالتفت إلى الشَّعبي، فقال له: إني لأجد في قَفاي حِكّة أفتأمرني بالحِجامة؟ فقال الشَعبِيُّ: الحمد لله الذي حوَلنا من الفقه إلى الحجامة. " [٣،ج٣ص١٠]

أسباب تفضيل الصمت

كان طلب السلامة والخوف على النفس، والخشية من العواقب الوخيمة، والحذر من الوقوع في محظور، أو إثارة مشكلة، من أبرز الأسباب والذرائع التي يتذرع بها مؤيدو الصمت على اختلاف توجهاتهم. فهي دعوة إلى الدعة والسكينة، والابتعاد عن المواجهة والمجابهة والظهور، ونشدان الراحة والطمأنينة، والهرب من المشاكل، والتخفف من المسؤولية؛ فالكلام ظهور إلى العلن، وتعرض للأضواء، وإبراز للذات. وقد يكون فيه ضرب من المواجهة يتطلب من صاحبه الاستعداد والانتباه إلى ما يقول، والتأمل فيه، وتحمل عواقبه. وهذه المواجهة سوف تعرضه للامتحان أمام الآخرين، وقد تكشف عن نواقصه وعيوبه وأخطائه. وهو أمر يرى هؤلاء أن من الخير للإنسان أن يتجنبه، ويعيش في الظل، ويريح نفسه من الأعباء.

وهكذا نرى الأمثال تضرب لهذا الأمر، والشعراء يتغنون به، والحكماء ينصحون بالتزامه، وعامة الناس تتداول ما قيل فيه. فقالوا :" أربعة تؤدي إلى أربعة: الصمت إلى السلامة ..." [٥،ج١ص٢٥] "من سكت سلم." [٥،ج١ص٢٧] "من لزم الصمت سلم." [٧،ج١ص٨٤]"وفي الصمت سلامة وغنم." [٢١ج١ص٢٦٩] ومن ذلك قول أبي العتاهية: [٧،ج١ص٨٠]

من لزم الصمت نجا من قال بالخير غنم

وقول الشاعر: [٢٢،ج١ص٥٤٩] [٨]

وجواب الأحمق الصمت وفي الصمت السلامة

وقال أبو بكر محمد بن سعدون التميمي: [١٠،ج٢ص١٣٩]

سجن اللسان هو السلامة للفتى من كل نازلة لها استئصال

إن اللسان إذا حللت عقاله ألقاك في شنعاء ليس تقال

بل إن ابن ليون التجيبي يرى أن الصمت عز وسلامة: [١٠،ج٥ص٥٦٤]

الصمت عز حاضر وسلامة من كل شر

ويعد أبو العلاء المعري الصمت أمرا ظاهر الربح، في حين يرى أن الكلام مغامرة غير مأمونة العواقب [١٩،ج١ص٧٢٥] :

رأيت سكوتي متجرا فلزمته إذا لم أفد شيئا فلست بخاسر

وكان أعرابي يجالس الشعبي فيطيل الصمت، فسئل عن طول صمته فقال:"أسمع فأعلم ، وأسكت فأسلم." [٢،ج١ص١٦٤]."وقيل لرجل من كلب طويل الصمت: بحق ما سمتكم العرب خرس العرب؟ فقال: أسكت فأسلم ، وأسمع فأعلم." [٢،ج١ص٢٧٠]

---

(٨) لم أقف على قائله.

والشواهد التي تذكر في هذا الباب كثيرة شائعة. وهي بلا شك تدل على أن المتكلم واقع تحت الحصار والمراقبة الدقيقة، وعلى ما كان ينتظر من يجرؤ على الحديث من اعتراضات واحتجاجات ونقد، ناهيك عما يمكن أن يتجاوز ذلك إلى ما هو أشد وأعظم؛ ولاسيما إذا تطرق إلى موضوعات مثيرة وحساسة. فالسلامة التي يفوز بها الصامت تشمل السلامة من نقد الآخرين، ومن انتقاصهم ما يقول، ومن ردود أفعالهم إذا ما تعرض لهم بنقد أو تجريح، والسلامة من الإثم إن ارتكب في كلامه محظورا، والسلامة من الغضب الاجتماعي ومن عقوبة السلطان، فيما لو خرج عن العرف المألوف، أو تجاوز الخطوط الحمراء. وهكذا نرى أن الأسباب التي يتذرع بها من يفضلون الصمت كثيرة متنوعة. يمكن بيان أهمها فيما يأتي :

أولاً: أسباب بيانية بلاغية

يرى العرب أنفسهم أمة البلاغة والبيان ، ويتفاخرون بامتلاك القدرات البيانية، ويعدونها من أبرز صفات الكمال، ويعيب بعضهم على بعض عجزه عن التعبير وقصوره فيه: [٦،ج٢ص١٦٩] (٩)

كفى بالمرء عيبا أن تراه له وجه وليس له لسان

وصار العي من العيوب التي يتبرأ منها الإنسان و يستعيذ. قال النمر بن تولب : [٢،ج١ص٣]

أعذني رب من حصر وعي ومن نفس أعالجها علاجا

وفي مثل هذه الحالة أصبحت الأنظار مسلطة على المتحدثين، وسهام النقد موجهة إليهم. ومن هنا عدوا السكوت لمن لا يمتلك قدرة متميزة على التعبير أسلم وأستر للعيوب؛ لأنه إن أخطأ فلن يسلم من النقاد. قال ابن ليون التجيبي: [١٠،ج٥ص٥٩٧]

والزم الصمت إذا ما خفت أن تلحى فتغلط

"وكان يقال : إذا فاتك الأدب فالزم الصمت." [٦،ج٢ص١٧٦] وقال بعض الحكماء:"وإذا نازعتك نفسك إلى مراتب القائلين المصيبين، فاذكر ما دون الصواب من وجل الخطأ وفضائح المقصرين." [٦،ج٢ص١٧٧]وعلى الرغم من أن الجاحظ كان من أبرز أنصار الكلام، إلا أننا نراه يعد الخوف من الافتضاح أمام الناس داعيا قويا للصمت." فليزدك في الصمت رغبةً ما ترى من كثرة فضائح المتكلمين في غير الفرص، وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة." [١١،ج١ص١١٣]

ونشأ من ذلك خوف وحساسية من الوقوف للحديث أمام الناس. قيل لعبد الملك: "أسرع إليك الشيب. فقال: كيف لا وأنا أعرض عقلي في كل جمعة على الناس. وقيل: نعم الشيء الإمارة لولا قعقعة البريد وصعوبة المنبر. وقيل: إياك والخطبة فإنها مشوار كثير العثار." [٨،ج١ص١٣٧] وتداول الناس حكايات لمن أرتج عليهم من الخطباء. [٨،ج١ص١٣٧] وقال الجاحظ:"وكانوا يمدحون شدة العارضة، وقوة المنة، وظهور الحجة، وثبات الجنان، وكثرة الريق، والعلو على الخصم. ويهجون بخلاف ذلك." [٢،ج١ص١٧٦]وقال أحدهم:"ما رأيت أحدا يتكلم فيحسن إلا أحببت أن يصمت خوفا من أن يسيء، إلا زيادا فإنه كلما ازداد زاد حسنا." [٦،ج٢ص١٧١]

---

(٩) لم أقف على قائله.

ورووا حكايات طريفة قد يفهم منها التقليل من شأن الصامتين، وقد يكون المراد منها الحث على الصمت؛ لئلا ينكشف الإنسان ويصبح أضحوكة. ومنها ما رووه من أن رجلا كان يجلس إلى أبي يوسف فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تتكلم؟ قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غابت الشمس، قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل؟ فضحك أبو يوسف وقال: أصبت في صمتك وأخطأت أنافي استدعائي لنطقك. [٢٠،ص١٤٩]ورووا أنه كان للأحنف بن قيس جليس طويل الصمت، فاستنطقه يوماً، فقال: أتقدر يا أبا بحر أن تمشي على شرف المسجد، فقال الأحنف: " سكت ألفاً ونطق خلفاً." [٢٢،ج١ص٥١٠] ولذلك عدوا الصمت سترا للعيي. قال الخطفى جد جرير: [٢،ج١ص٢٢٠]

وفي الصمت ستر للعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

وبالغ بعضهم فقال: [٦،ج٢ص١٧٤] (١٠)

إن كان في العيي آفات مقدرة ففي البلاغة آفات تساويها

فإن لم يكن بد من الكلام فليكن موجزا قدر الإمكان؛ لأنه كلما كان كذلك كان احتمال الوقوع في الخطأ أقل. ولهذا قالوا "من كثر كلامه كثر سقطه." [٢،ج٢ص٧٦] وقال المنتصر بن بلال الأنصاري: [٢٣،ص٥٠]

وأقلل إذا ما قلت قولا فإنه إذا قل قول المرء قل خطاؤه

وقال أبو مسهر: [٢٣،ص٤٢]

قد أرى كثرة الكلام قبيحا كل قول يشينه الإكثار

وعدوا إطالة الكلام نوعا من العي، كما يروى عن ربيعة الرأي أنه تكلم يوما" فأكثر وأعجب بالذي كان منه، وإلى جنبه أعرابي، فالتفت إليه، فقال: ما تعدون البلاغة يا أعرابي؟

قال: قلة الكلام، وإيجاز الصواب، قال فما تعدون العي؟ قال:ما كنت فيه منذ اليوم." [٣،ج٢ص٢٦١] وقال الجاحظ عن إياس بن معاوية:"فما نعلم أحدا رمى إياسا بالعي، وإنما عابوه بالإكثار." [٢،ج١ص٩٩]

من الواضح مما سبق أنه يمكننا أن نقول: إن البيئة العربية كانت شديدة على المتحدثين، وتحذر من الخروج على أسلوب الجماعة وذوقها، وأنها تميل إلى النقد والكبت أكثر مما تميل إلى التشجيع والتدريب. ومع ذلك فقد يكون لهذا وجه إيجابي أحيانا؛ لأنه ربما كان دافعا إلى الإجادة، وترسيخ الإحساس بالمسؤولية.

ثانياً: الخوف من رد الفعل

وربما تكون الحساسية من النقد عند العرب، وما للكلمة، ولاسيما الشفوية، من تأثير حاسم سببا في تفضيل الصمت. فكم من الكلمات التي أشعلت الحروب، وأثارت الفتنة والرغبة في الانتقام. قال إبراهيم بن المهدي: [٢٤ص١٦]

ولئن ندمت على سكوتي مرة فلقد ندمت على الكلام مرارا

إن السكوت سلامة ولربما زرع الكلام عداوة وضرارا

وقال يعقوب الحمدوني: [٣،ج ٢ص٤٤٥]

---

(١٠) لم أقف على قائله.

وقد يرجى لجُرحُ السَّيف برء ولا برء لما جَرَحَ اللِّسانُ

وقال الجاحظ:"وإلا فإنك إذا نظرت إلى جميع شرور الدنيا وجدت أولها كلمة عارت فجرت حربا عوانا،كحرب بكر وتغلب ابني وائل، وعبس وذبيان ابني بغيض، والأوس والخزرج ابني قيلة ، والفجار الأول والثاني، وعامة حروب العرب والعجم." [١١،ج١ص١٧٠] ولما قتلت بنو تغلب عمير ابن الحباب السلمي، وأنشد الأخطل أمام عبد الملك بن مروان قوله:

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر

وكان الجحاف السلمي حاضرا، وثب الجحاف يجر مطرفه وما يعلم من الغضب، فقال عبدالملك للأخطل: "ما أحسبك إلا قد كسبت قومك شرا." و مضى الجحاف حتى أوقع ببني تغلب وقتل منهم خلقا كثيرا . [٤،ج١٢ص٢٠١]

ومن أمثال العرب قولهم:"محا السيف ما قال ابن دارة ."وقصته أن ابن دارة هجا بني فزارة هجاء مقذعا ، وخص منهم رجلا اسمه زميل، فقتله زميل وقال :

أنا زميل قاتل ابن دارة وراحض المخزاة عن فزارة

وقال الكميت في ذلك: [٢٥،ج٣ص٢٧٠]

وَلا تكثِرُوا فيهِ الضجاجَ فَإنّه محَا السَّيْفُ مَا قالَ ابنُ دارةَ أجمَعَا

فإن لم يكن الرد بالسيف فقد يجلب على المتكلم كلامه ردا بكلام ربما يكون أشد وأنكى. قال الإمام الشافعي: [٢٦،ص٨٤]

فلا ينطقنْ منك اللسان بسوءة فكلك سوءاتٌ وللناس ألسن

وقال الحجاج: "من لم يخف الجواب، تكلم ومن خافه تبكم."(٩٧) [٨،ج١ص٧٨]ويصور أبو العلاء المعري هذا بقوله: [١٩،ج١ص١٥٢]

إذا سكت الإنسان قلت خصومه وإن أضجعته الحادثات لجنبه

فالحذر من ردة الفعل فيما إذا تعرض لأحد بما يسوءه، والخشية من إثارة الفتن والاضطرابات والحروب، كانت من أبرز الذرائع التي تذرع بها مؤيدو الصمت.

ثالثاً: الدافع الديني

الاحتجاج بالنصوص الدينية ليس مقصورا على من يفضل الصمت؛ فالذين يفضلون الكلام لهم أدلتهم المستمدة من الدين أيضا، كما لاحظنا عند الجاحظ. والنصوص الدينية في هذا الموضوع كثيرة، وهي تتناسب مع مواقف وأحوال مختلفة. وقد مال كل فريق إلى الاستدلال بما يتناسب مع ميوله وتوجهاته، ولكن مؤيدي الصمت بالغوا في حشد الأدلة والأقوال الغريبة دون تنقيح، حتى أتوا من ذلك بالعجائب،كما سنرى.

وتعد الحجة الدينية من أشهر الحجج التي اعتمد عليها مؤيدو الصمت، وأكثروا من ترديدها منطلقين من بعض النصوص التي تدعو إلى ترشيد الكلام. وبينما أخذ بعضهم هذا الأمر بعقلانية واعتدال، بالغ آخرون، وجعلوا الصمت مقارنا للتدين والورع والتقوى، والكلام مظنة للزيغ والزلل والضلال، ووصلت المبالغة عند بعضهم إلى حد وضع وصفة غريبة لعلاج الإنسان من علة الكلام، إذ اقترحوا عليه أن يضع في فمه حصاة لمدة معينة حتى تعرقل حديثه، وتذكره بآفات الكلام. [١٢،ج٣ص١١٤] وذكر الغزالي أن أبا بكر الصديق فعل ذلك [١٢،ج٣ص١١١]. وروى بعضهم عن أحد الحكماء أنه تعلم الصمت بحصاة وضعها في فيه أربعين سنة لا ينزعها إلا عند

الطعام أو الشراب. (١٠١) [١٧،ص٤٣٦]ومن تلك المبالغات تشبيههم اللسان بالكلب، وبالسبع العقور. [١٧،ص٦٢،٣٦٦] ومنها أنهم عدوا طلاقة اللسان بلاء ضارا بالدين ، ونسبوا إلى الأوزاعي أنه قال:"ما بلي أحد في دينه ببلاء أضر عليه من طلاقة لسانه." [٢٣ص٦٤] هذا مع أن القرآن الكريم يشير إلى البيان على أنه منة ومنحة إلهية "خلق الإنسان، علمه البيان."[سورة الرحمن:٣،٤]ويعد حل عقدة اللسان نعمة امتن الله بها على موسى (عليه السلام).

وشبيه بذلك ما نسبوه إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أنه قال :" شعبتان من النفاق البذاء والبيان، وشعبتان من الإيمان الحياء والعي." [٨،ج١ص٦١] وقال يزيد بن خبيب:"المتكلم ينتظر اللعنة، والمتصنت ينتظر الرحمة." [٧،ج١ص٨٥] وهكذا بلغ بهم الأمر أن جعلوا البيان نقيصة وعيبا يذم به الإنسان، والعي صفة من الصفات الإيمانية.

ولكي يكتسب الأمر عمقا دينيا قويا حشدوا كثيرا من الأحاديث والآثار التي يغلب الضعف أو الوضع على الكثير منها. ومن ذلك ما روي عنه(صلى الله عليه وسلم) أنه قال:"الصمت وهو أول العبادة." [٢١،ج٢ص٣٠٣] وحديث "الصمت أرفع العبادة." [١٦،ص٨] وحديث "الصمت سيد الأخلاق." [١٦،ص٩]"ونسبوا إليه (صلى الله عليه وسلم)أنه القائل :"الصمت حكم وقليل فاعله." [١٦،ص١٦] وإلى عيسى (عليه السلام) أنه قال:"لا تنطقوا أبدا." [١٧،ص٥٩] وإلى داود(عليه السلام) أنه قال:"رب كلام قد ندمت عليه، ولم أندم على صمت قط." [١٧،ص٣١٦] ورووا في ذلك الغرائب والعجائب، فذكروا أنه "كان في بني إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن يمشيا على الماء، فبينما هما يمشيان في البحر إذ هما برجل يمشي في الهواء، فقالا له: يا عبد الله، بأي شيء أدركت هذه المنزلة؟ قال بشيئين من الدنيا: فطمت نفسي عن الشهوات، وكففت لساني عما لا يعنيني، ورغبت فيما دعاني إليه، ولزمت الصمت، فإن أقسمت على الله أبر قسمي، وإن سألته أعطاني." [١٧،ص٣٨٣]ولتعزيز موقفهم، ودعم رأيهم، أعطوا العبارات المشهورة المتداولة بعدا دينيا؛ فذكروا أن داود(عليه السلام)هو الذي قال:"إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب." [١٧،ص٦٠]و نسبوها تارة أخرى إلى لقمان. [١٧،ص٣٧٩] وصعدوا بالأمر إلى آدم (عليه السلام)، فذكروا أنه قام خطيبا في أربعين ألفا من ولده فقال:"إن الله أمرني فقال: يا آدم يقل كلامك ترجع إلى جواري." [١٦ص١٠]ومن الملاحظ أن كثيرا من المبالغات في فضل الصمت جاءت في كتب الزهد والتصوف التي يغلب عليها الطابع السلبي الانسحابي، والتزهيد من المشاركة الإيجابية الفعالة في الحياة. و قد كانت مبالغتها في هذا الأمر منسجمة مع الطابع العام المهيمن عليها. لذلك نجدها أحيانا تربط بين الصمت والعزلة عن الناس."العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار من الناس." [١٢،ج٣ص١١٠]"الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها في العزلة عن الناس، وواحدة في الصمت ." [١٦،ص١٣] ويقول إسماعيل الفقيه: [١٦ص٣٩]

الخير أجمع في السكو ت و في ملازمة البيوت
فإذا تـأتى ذا وذا لك فاقتنع بأقل قوت

ولم تخل الكتب المعتدلة من التلميح إلى تفضيل الصمت، فنجد مثلا أن مسلما في صحيحه وضع بابا بعنوان "باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا من خير" [١،ص٦٨] فقدم الحث على لزوم الصمت، وجعل الكلام بالخير استثناء وتاليا، مع أن الحديث يقدم الحث على قول الخير ويثني بالأمر بالصمت.

ولا يفتقر الدعاة إلى الصمت من منطلق ديني إلى الحجج والبراهين، فهناك حشد كبير منها، وهي تقوم في الغالب على ما يرون صدوره من اللسان من تجاوزات وهفوات، كالغيبة والنميمة والكذب والسب والشتم وتزكية النفس، بالإضافة إلى الكلام الذي يتجاوز المسلمات الدينية، ونحو ذلك من أنواع الكلام الممنوع أو غير المرغوب فيه، مما أطلق عليه الغزالي آفات الكلام، والتي أوصلها إلى عشرين آفة. أما الكلام المباح فيرى أفضلية تركه، لأن أقل حالاته أن يكون من الفضول المضيع للوقت، مع أنه قد لا يسلم من الوقوع في الآفات المحرمة. ويمثل لهذا الفضول بقوله:" مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك، وما رأيت فيها من جبال وأنهار، وما وقع لك فيها من الوقائع، وما استحسنته من الأطعمة والثياب، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم." [١٢،ج٣ص١١٣] ولكنهم لم يكتفوا بذلك، بل أضافوا إليه أن الكلام الذي ظاهره الخير والصدق يمكن أن يكون وبالا على صاحبه، لأنه قد لا يسلم من الرياء والنفاق، أو ربما يطرأ على المتحدث فرح بما أوتي وإعجاب بما قال، مما قد يتسلل إليه بشكل خفي و دون أن يشعر. ورووا في ذلك أن عمر بن عبدالعزيز قال:" إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة." [١٧،ص٨١]وروي أن بعض العلماء ممن قدم عليه قال:"الصامت على علم كالمتكلم على علم. فقال عمر : إني لأرجو أن يكون المتكلم على علم أفضلهما يوم القيامة حالا، وذلك أن منفعته للناس، وهذا صمته لنفسه. قال :يا أمير المؤمنين، فكيف بفتنة المنطق؟ قال فبكى عمر بكاء شديدا." [١٧،ص٣٤٧]

فلا عجب بعد ذلك أن نراهم يعدون الصمت تسعة أعشار العبادة أو الحكمة، وأن ينسبوا ذلك إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) [١٦،ص٣٧] أو إلى المسيح (عليه السلام) [١٢،ج٣ص١١٠]

وبذلك ضيقوا الخناق على من يريد الكلام، وأشعروا المتحدث أنه يسير في طريق شائك، وأنه مقدم على امتحان عسير،.

ومن الملا حظ أن أكثر ما يرغب به هؤلاء من الكلام هو الذكر والدعاء ونحوهما، مما لا يمثل مشاركة مباشرة في الحياة، ولا تفاعلا مع الآخرين.كما أنهم اهتموا بحشد الأقوال المؤيدة للصمت مهما كان مصدرها وأيا كان قائلها. ولا نجد منهم اهتماما واضحا، و إبرازا و تفعيلا لنصوص دينية أخرى، تحث على الكلام الإيجابي المؤثر في الحياة الواقعية، وتدعو إلى مبادئ سامية ومثل عليا.مثل: "وعلى أن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم."[١، ص١٤٧٠] و" أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر." [٢٧،ج٤ص٥٠٦] و"سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله." [٢٧،ج٣ص١٩٥] و"فليقل خيرا أو ليصمت." [١،ص٦٨]مع عدم حصر مفهوم الخير بالذكر والدعاء ونحوهما.

وهناك ممن بنوا موقفهم على أساس ديني من كانوا أكثر اعتدالا و منطقية، فقد كانوا لا يحذرون من الكلام مطلقا، ولكنهم يدعون إلى التأمل والتروي فيما يقال. كما روي عن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنه قال:" عليك بالصمت إلا في حق؛ فإنك به تغلب الشيطان." [١٧ص٧٩] وقال الربيع بن خيثم:"اخزن لسانك إلا مما لك، ومما عليك." [١٧ص٥٢] وقال إبراهيم التيمي:" المؤمن إذا أراد أن يتكلم نظر، فإن كان كلامه له تكلم، وإن كان عليه أمسك عنه." [١٧،ص٧٨]وقال أبو حاتم البستي:"الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه

التكلم." [٢٣،ص٤٣] وقال ابن المبارك في الإمام مالك: [٣،ج٢ص٢٧٤]

صموت إذا ما الصمت زين أهله وفتاق أبكـار الكلام المختم

وقال عمار الكلبي : [٧،ج١ص٨٤]

وقل الحـق وإلا فاصمتن إنه من لزم الصمت سلم

رابعاً: أسباب سياسية

لو نظرنا في كثير من المأثورات حول الكلام والصمت، لوجدنا أنها تحذر من الهلاك الذي قد يتسبب به اللسان، وما قد يجره على الإنسان من بلاء ودمار. و تشير إلى مدى الخوف المستكن في النفوس من عواقب الكلام، وتصور أجواء الحذر التي يعيشها بعض الناس، والطوق المحكم عليهم في كلامهم، وهي أجواء لا شك في أنها تختلف من حين إلى حين ومن مكان إلى مكان. وربما كان بعضهم يبالغ أحيانا في تصوير الخطر المحدق بالذين لا يصونون ألسنتهم من الكلام المحظور، أو يحكون عن حالات فردية، أو تجارب مريرة. ولكن هذه المأثورات تجعلنا نشعر بأن هذا هو الطابع العام السائد غالبا. ومن هذه الأقوال:

مقتل الرجل بين فكيه. حتف الرجل مخبوء تحت لسانه. رب حجة تـأتي علـى مهجـة.كم من دم سفكه فم.كم إنسـان أهلكـه لسـان. رب حـرف أدى إلـى حتـف. لا تفرط فتسقط. الـزم الصـمت وأخف الصوت. احذر لسانك لا يضرب عنقك. عثرة اللسان لا تبقي ولا تذر. طول اللسان يقصر الأجل. (١١) أبونواس: [٣،ج٢ص٤٧٣]

خـلِّ جنبيك لرامٍ و امـضِ عنه بسلامِ

مُتْ بداء الصمت خيرٌ لَـكَ من داء الكلامِ

رب لفظ سـاق آجا ل فئـــام و فئام

إنَّما الســالم مَن ألْ جَم فـاهُ بلجامِ

منصور الفقيه: [٧،ج١ص٨٢]

خرس إذا سألوا وإن قالوا عييٌّ أو جبـان

فالعيّ لـيس بقاتل ولربّما قتل اللّسـان

أبان اللاحقي : [٧،ج١ص٨٧]

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهـار قبل الكلام

عبدالله بن المبارك: [٢٣،ص٤٢]

تعاهد لسانك إن اللسان سريع إلى المرء في قتله

أبو محمد اليزيدي: [٢٤،ص١٧]

حتف امرئ لسانه في جده أو لعبه

جعفر الصادق: [٢٨،ص٣٨٠]

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل

وعثرته من فيه ترمـي برأسه و عثرته في الرجـل تبرا على مهل

---

(١١) انظر هذه الأقوال وأمثالها في ابن عبد ربه، العقد الفريد [٣،ج٣ص٨١] والتوحيدي،أبي حيان، الإمتاع والمؤانسة [٣١،ج٢ص٦١]وفي كتب الأمثال.

عبدالله بن المعتز: [٢٩،ص٢٣]
ويـا رب ألسنة كالسيو ف تقطع أعناق أصحابها
الخبزأرزي: [٧،ج١ص٨٦]
لسان الفتى حتف الفتى حين يجهل وكل امرئ ما بين فكيه مقتل
وكـم فاتح أبواب شر لنفسه إذا لم يكن قفل على فيه مقفل

هذا غيض من فيض مما تضمنه تراثنا من نصائح وتحذيرات من خطر اللسان. ولا نكاد نجد فروقا جوهرية بين هذه الأقوال، فهي، وإن اختلف أسلوب التعبير تدور حول مضمون واحد، هو ضرورة إحكام السيطرة على اللسان، وإلجام الفم بلجام، وتدق ناقوس الخطر، معلنة أنه ما لم يتمكن الإنسان من ذلك، فإنه قد يدفع مقابل ذلك ثمنا باهظا ويعرض نفسه لخطر ماحق. فالإنسان إذاً، كما يرى هؤلاء، أمام امتحان خطير لو أخفق فيه فقد يكلفه حياته. فما هو مصدر هذا الخطر، ومن هو حامل هذا السيف المسلط على الرقاب؟ لا شك في أن السلطة السياسية هي المصدر الأكبر لهذا التهديد الذي يشير إليه هؤلاء. فإذا ما استثنينا الثارات القبلية والانتقام الشخصي، فإن السلطة التي تمتلك الهيمنة والقوة والقدرة على التنفيذ سيكون لها اليد الطولى في الوصول إلى من تريد، والانتقام ممن يسيء إليها ويعاندها.

جانب السلطان واحذر بطشه لا تعـاند من إذا قال فعل

وكلما كانت السلطة استبدادية غاشمة كان تهديدها أشد وبطشها أنكى، ولاسيما في أوقات الاضطرابات والفتن التي يتعاظم فيها شعور السلطان بالخوف من تأثير الكلمة وتهديدها لسلطته. والمفارقة أنه كلما كان السلطان أكثر ظلما وبطشا، كان ذلك أدعى إلى تذمر الناس منه، وضيقهم به، وأدعى إلى تعاظم دور الكلمة وشدة الحاجة إليها في مواجهته، ومقاومة ظلمه. فالكلمة كثيرا ما كانت الأداة الأقوى و الأمضى، و السلاح المتاح بيد المعارضين. وربما يفسر لنا هذا ما نلاحظه في تراثنا من تنافس بين السيف والقلم، يظهر على شكل مقابلات أو موازنات أو مناظرات. (١٢)

وقد كان الأمر بحفظ اللسان والتهديد بالقتل يأتي أحيانا من السلطان مباشرة، ومن على رؤوس المنابر، فقد رووا عن زياد بن أبيه أنه قال على المنبر:"إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يقطع بها ذنب عنز مصور. ولو بلغت إمامه سفكت دمه." [٦،ج١ص٣٣١]وهذا التحذير من زياد يصور لنا مدى ضيق الحاكم بالكلمة المعارضة، وخوفه منها. ولكنه لا يريد أن يعترف بذلك مباشرة، فهو يغطيه باللجوء إلى الاستخفاف بها وبقائلها " لا يقطع بها ذنب عنز مصور."غير أن تهديد القائل بالقتل، وإعلان ذلك على الملأ ينم عما يخفيه من فزع ورعب من دور الكلمة، وتأثيرها .

وهاهو ذا يضيق ذرعا بحجر بن عدي؛ لأنه كان يتكلم. فيستدعيه، ويقول له:" فأنشدك الله أن يقطر لي من دمك قطرة فأستفرغه كله. املك عليك لسانك، وليسعك منزلك." [١٥،ج٣ص٤٦٣] ثم أرسل إليه وفدا ليعذروا إليه، وأن يكف لسانه فلم يجبهم. فبعث به إلى

---

(١٢) انظر مثلا الحموي، ياقوت، معجم الأدباء[١٤،ج٥ص٤١] والمقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب [١٠،ج٣ص٥٤٦]، والقلقشندي، أحمد بن علي ، صبح الأعشى[٣٤ ج١٤ص٢٦٣].

معاوية فقتله .

ومما ذكر من تحذير الحكام الناس من الكلام، ما رووه عن بهرام، أنه مر به طائر بالليل فصاح، فرماه بسهم فأصابه فقال:"لو سكت الطائر لكان خيرا له." [٨،ج١ص٧٠]

وكانت السلطة تخشى من تهديد الكلمة حتى ولو لم تكن موجهة لها بطريقة واضحة و مباشرة. ذكروا أن عبدالله بن الزبير(رضي الله عنه) طلب من معاوية شيئا، فأبى، فقال:" والله ما أجهل أن ألزم هذه البنية فلا أشتم لك عرضاً، ولا أنضب لك حسباً، ولكن أسدل عمامتي بين يدي ذراعاً، ومن خلفي ذراعاً في طريق أهل الشام، وأذكر سيرة أبي بكر وعمر، فيقول الناس من هذا؟ فيقولون: ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الصديق. فقال معاوية: حسبك بهذا شراً، هات حوائجك." [٣٠،ج٧ص٤٠٩]

ولشدة خوف الناس من الحكام تواصوا بالحذر منهم، والصمت، أو تقليل الكلام بحضرتهم، وتداولوا الأقوال والحكايات التي تدور حول ذلك. ومنها ما نسبوه إلى يعقوب (عليه السلام) أنه قال لبنيه:" يا بني إذا دخلتم على السلطان فأقلوا الكلام." [٧،ج١ص٦٠]وهذه الكلمة وأمثالها مما ينسب إلى الأنبياء أو غيرهم نشك بقوة في صحة نسبتها، ولكن المهم أنها نص تداوله الناس وورد في سياق الموضوع؛ فهي تشير إلى موقف محدد بغض النظر عن قائلها. وقال حميد بن الصيمري لابنه :"اصحب السلطان بشدة التوقي، كما تصحب الأسد الضاري، والفيل المغتلم، والأفعى القاتلة." [٣١،ج٢ص٦٢] وقال عبدالملك بن صالح لمؤدب ولده بعد أن اختصه بمجالسته ومحادثته:" كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام." [٦،ج١ص٢١]

ومن علية القوم من كانوا يخشون أن يتكلموا بصدق عند الحاكم ، فالأحنف بن قيس يصمت عند معاوية ، فيسأله عن سبب صمته فيقول :"أخافكم إن صدقتكم ، وأخاف الله إن كذبت." [٦،ج٢ص١٨٠]وصمته هنا لون من التعبير؛ لأنه امتنع عن التزلف إلى الحاكم ومديحه بما ليس مقتنعا أنه يستحقه.

وتشير بعض القصص إلى خطورة الكلام عند السلطان حتى ولو لم يكن نقدا لسياسته، أو تهجما مباشرا عليه. فقد ذكروا أن سديفا أنشد أبا العباس السفاح قصيدته:

أصبح الملك ثابت الآساس بالبهاليل من بني العباس

التي حرضه فيها على بني أمية، وكان سليمان بن هشام بن عبدالملك حاضرا فقال:" يا أمير المؤمنين إن مولاك هذا مثل بين يديك يبعثك على قتلي وقتل ابني ويحدوك على طلب ثأرك منا، وقد بلغني أنك تريد اغتيالي. فقال أبو العباس: والله ما كان عزمي أن أقتلك ولا أن أسيء بك ولا أطالبك بشيء مما طالبت به أهل بيتك، فأما إذ قد وقع في خلدك أني أغتالك فيا جاهل من يحول بين وبينك وبين قتلك حتى أغتالك؟ ثم أمر بقتله وقتل ابنيه." [٢٨،ص٣٨٢]ورووا أن رجلا تعرض لكسرى شيرويه بن أبرويز شاكرا له قتله أبرويز، فسأله إن كان أبرويز قد قطع عنه رزقه أو وتره في نفسه، فقال: لا. فأمر أن ينزع لسانه من قفاه، وقال:" ما للعامة والوقوع في الملوك وهم رعية. حقٌّ ما يقال الخرس خير من البيان بما لا يجب." [٢٨،ص٣٨٣]

وأشد من هذا تصويرا لخطر الكلام عند الحاكم ما رووه من" أن ملكا من ملوك حمير خرج مُتَصيِّداً ومعه نديم له كان يُقرِّبه ويكرمه، فأشرف على صخرة مَلْساء ووقَف عليها، فقال له النديم: لو أن إنسانا ذُبِحَ على هذه الصخرة إلى أين كان يبلغ دمه ؟ فقال الملك: اذبحوه عليها ليرى دمه أين يبلغ. فذبح عليها فقال الملك: رُبَّ كلمة تقول لصاحبها دعني."[٢٥،ج٢ص٥٧] ولهذا

احتج مؤيدو الصمت بعقوبات السلطان على الكلام، فقالوا:"ولا تسمع الناس يقولون: جلد فلان حين سكت، ولا قتل فلان حين صمت. وتسمعهم يقولون: جلد فلان حين قال كذا، وقتل حين قال كذا وكذا." [٢،ج١ص٢٧٠]

وتعكس هذه النصوص والحكايات حالة الانفصام بين الحكام والمحكومين في العقلية التي صنعتها، وقيام هذه العلاقة على أساس من الخوف المتبادل، فالحاكم يخشى من ألسنة الناس وما يمكن أن يؤدي إليه الكلام من زعزعة لحكمه، والناس يخشون من بطش الحاكم. وربما يفسر لنا هذا تلهف الحكام إلى المديح، وتعطشهم إليه، مع أن الإسلام نهى بشدة عن ذلك.

ومن الواضح أن مغزى هذه الأقوال والحكايات هو نشر الرهبة بين الناس من الحديث الذي يمس السلطة. وقد نتساءل عما إذا كان للحكام وحواشيهم دور في وضع بعضها أونشرها؛ لتساعدهم في إسكات المنتقدين، والقضاء على المعارضين. ولكن على الرغم من جو الحذر الذي تصوره بعض الأقوال والأمثال، والذي يلاحق الناس حتى في خلواتهم، كقولهم إن للحيطان آذانا؛ فإنهم كانوا ينفسون عن أنفسهم ويتفكهون بالحديث عن حكامهم. يقول الجاحظ:"ولِمَ نرى حب الطعن على الملوك، والتجسس على أخبارهم ، وعشق نشر المعايب، واستحلال الغيبة، ظاهراً في طباع الناس لا يكاد ينجو منه أحدٌ منهم إلا من رجح حلمه وعظمت مروءته ، وظهر سوددة، واشتد ورعه، حتى قال بعضهم: الغيبة فاكهةُ النساك." [١١،ج١ص١٥٨]

وقد لا يقتصرون على الحديث عن الشأن العام بل يتجاوزونه إلى حياة الحكام الخاصة. " ولهذا شكا بعض الملوك تنقيب العوام عن أسرار الملوك فقال: [١١،ج١ص١٥٦]

ما يريد الناس منا ما ينام الناس عنا
لو سكنَّا باطن الأر ض لكانوا حيث كنا
إنما همهُمُ أن ينشروا ما قد دفنا

وقد يلجأون إلى التورية، أو الحديث غير المباشر كما تشير إليه القصة التي ذكرنا سابقا لعبدالله بن الزبير مع معاوية. وربما لجأ بعض المبدعين إلى استخدام بعض الفنون الأدبية كالملاحن أو القصص على ألسنة الحيوان والطير .

إن الانطباع الذي نخرج به مما مضى هو أن أجواء الخوف هي الغالبة، وهي التي أفرزت هذه الأمثال والأشعار والحكايات التي تعددت مصادرها وأهدافها، ولكنها اتفقت في مضمونها، وأصبحت من أقوى حجج مؤيدي الصمت. وهي حجج مبنية على قوة ضغط الواقع الذي يرى هؤلاء أنه لا مفر منه، ولا مناص من الخضوع والاستسلام له.

وربما كان لشدة بطش السلطة من جهة، وفوضوية الحركات المعارضة، ودمويتها أحيانا، وما أدت إليه الصدامات العنيفة بين السلطة ومعارضيها من أحداث مأسوية في التاريخ الإسلامي، نتيجة لافتقار الأطراف المتنازعة إلى الحكمة، ربما كان لذلك دور في هذه الدعوة السلبية إلى الصمت.

ومما يلاحظ أنه ليس هناك إشارة إلى مدى قناعة الإنسان برأيه وضرورة دفاعه عما يراه حقا، وأهمية التحمل والتضحية في سبيل ذلك، وكأنها دعوة إلى التسليم والاستسلام لمن يملك القوة، بغض النظر عما إذا كان على حق أو على باطل.

ولا شك في أن هذا التخويف من الكلام يشير إلى عدم وجود قنوات مشروعة للتعبير عن

الرأي، وترشيد عملية النقد. وفي ظل غياب هذه القنوات التي يمكن من خلالها رفع هالة القداسة عن الحاكم من جهة، وضبط النقد وترشيده من جهة أخرى، أصبح الناس ما بين صمت في العلن، وجبن عن مواجهة الظالمين والمقصرين، وبين إطلاق للألسنة، وممارسة سرية للنقد، غير عقلانية ولا رشيدة،على نحو ما أشار إليه الجاحظ. ولعل لهذا دورا في سوء الحياة السياسية بشكل عام، وانفصام الفئة الحاكمة عن بقية المجتمع، واتساع الهوة بين الحكام والمحكومين.

خامساً: اليأس من الناس، والتبرم بالسفهاء والثرثارين

ورد في الحديث أن رسول الله(صلى اله عليه وسلم) قال :"إن أحبكم إلي وأقربكم مني في الآخرة محاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني في الآخرة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون ." [٣٢،ج٤ص١٩٣]

وهذه الفئة من الناس قد تثير من حولها ، وتدفعهم إلى التبرم بهم وبما يقولون، وتفضيل الصمت واستحسانه. لا لأنهم يرون له الأفضلية فعلا، بل لما يعانونه من هؤلاء. يقول أبو حيان التوحيدي: "ويقال للمهذار اكفف لا ليكف عن النطق، ولكن ليؤثر الصمت." [٣١،ج١ص١٤٩]وقال ابن عباس لرجل خلط في كلامه:"بكلام مثلك رزق الصمت المحبة." [٢٥،ج٤ص٥٦] ويتهم الأصمعي ظرفاء العرب بكثرة الكلام:"إذا تظرف العربي كثر كلامه، وإذا تظرف الفارسي كثر سكوته."(١٦٣) [٦،ج٢ص١٧٨]

وقد عدوا من الحكمة السكوت عن إجابة الأحمق والمسيء. قال الشاعر : [٢٢،ج١ص٥٤٩] (١٣)

وجواب الأحمق الصمت وفي الصمت السلامة

وقال سالم بن ميمون الخواص: [٢٣،ص١٤٠]

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخير من إجابته السكوت

وقال محمد بن أبي العتاهية: [٤،ج٤ص٨٨]

ما كل نطق له جواب جواب ما يكره السكوت

ولا يقتصر الأمر على المضايقة، بل يتعداه إلى الإيقاع في الحرج، كما في القصة التي رواها أبو حيان التوحيدي، وذكر فيها مجلسا لابن العميد حضره أبو سعيد السيرافي وأبو الحسن العامري، وكان المجلس غاصا بالحاضرين، فسأل العامري أبا سعيد، ما طبيعة الباء من بسم الله الرحمن الرحيم ؟ فعجِب الناس من هذه المطالبة، ونزل بأبي سعيد ما كاد يشده به، فأنطقه الله بالسحر الحلال.

وذلك أنه قال: ما أحسن ما أدّبنا به بعض الموفّقين من المتقدّمين، فإنه قال: (١٤)

وإذا خطَبْتَ عَلَى الرّجال فلا تَكُن خَطِل الكلام تقُولُه مختالاً

واعلَم بأنّ من السكوت لبابةً ومن التكلّف ما يكون مُحالاً

والله يا شيخ لَعينك أكبر من قرارك، ولَمرآك أوْفى من دُخلتك، ولَمنشورك أبين من مطويّك؛ فما هذا الذي طوّعت له نفسك، وسدَّدَ عليه رأيك، إني أظن السّلامة بالسّكوت تعافُك، والغنيمة

---

(١٣) لم أقف على قائله.

(١٤) لم أقف على القائل.

بالقول ترغب عنك. والله المستعان."

فأعجب ابن العميد، بما قال أبو سعيد ثم تمثل بأبيات منها: (١٥)

وفي الصّمـتِ ستْر للعَيِيّ وإنّمـا صحيفَـــةُ لب المرءِ أَن يتكلَّمِا

وفي الصَّمْت ستْر وهو أبهَى بذِي الحِجَا إذا لم يكـن للنُّطق وجهٌ ومَذْهَبُ

ثم قال :"هاتوا حديثاً آخر فقد يئسنا من هذا ..... قال أبو حيان :" فلما خرجنا قلت لأبي سعيد السيرافي: أيها الشيخ! رأيت ما كان من هذا الرجل الخطير عندنا، الكبير في أنفسنا؟ فقال: ما دُهيت قطُّ بمثل ما دُهيت به اليوم." [٣٣،ص٤١١]

ومن الواضح أن كلا من أبي سعيد وابن العميد قد تبرم وضاق ذرعا بما قال العامري، وأنهما إثر ذلك أشادا بالسكوت، وعداه فضيلة وسترا. فكان في الموقف حرج لا يرفعه إلا السكوت أو تغيير مجرى الحديث. وقد نفهم من هذا أن الكبراء كانوا يستعينون بالدعوة إلى الصمت للتخلص من مثل هذه المواقف؛ فهو وسيلة للتخلص من الوقوع في الحرج، وحماية أنفسهم من انكشاف بعض ما فيهم من قصور أو عيوب، فمن الأسلم لهم إذاً أن يتعاملوا مع أناس صامتين منقادين؛ لأن الأسئلة قد تفتح العقول على ما لا يريد الكبراء.

وهناك من يفضل الصمت يأسا من الناس وضيقا بهم أو ترفعا عليهم، كالفضل بن الحباب الجمحي الذي يقول : [٨،ج١٦ص٢٠٥]

قالوا: نراك تطيل الصمت قلت لهم ما طول صمتي من عي ولا خرس

لكنه أحمد الأمـــرين عـاقبة عندي وأبعده من منطق شكس

أأنشر البز فيمن ليـس يعرفه أو أنثر الدر للعميـان في الغلس

قالوا:نراك أديباً لست ذا خطـل فقلت:هـاتوا أروني وجه مقتبس

لو شئت قلت و لكن لا أرى أحداً يروي الكلام فأعطيه مدى النفس

وقريب من هذا ما فعله أبو حيان التوحيدي(- بعد٤٠٠ هـ) عندما أحرق كتبه؛ لأنه لم يجد من هو حريص على الاستفادة منها، ومن هو جدير بما فيها من العلم، ولأنه لم ينل من ورائها ما كان يريد. ولم يخل الأمر من الخوف من التعرض للنقد والتجريح" فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها" [٨ج١٥، ص ١٨ ،١٩] لكن هذا ليس تأييد واضحا من أبي حيان للصمت؛ بل ممارسة احتجاجية له، وتعبير عن سخطه على الناس، وخيبة أمله فيهم.

وممن دعا إلى الصمت لتبرمه بالناس وسوء ظنه بهم أبو العلاء المعري(-٤٤٩ هـ)الذي يعد من أكثر الشعراء دعوة إلى الصمت وذكرًا له في شعره كقوله: [١٩،ج٢ص٣١٠]

عنديَ فاعلم نصيحة عجب وما إخال السفيه قابلها

اسكت فإن السكوت منقبة تأمنْ به إنسها وخابلها

وقوله : [١٩،ج٢ص٤٥٥]

أطرق كأنك في الدنيا بلا نظر واصمت كأنك مخلوق بغير فم

وقوله : [١٩،ج١ص٣٧٧]

---

(١٥) لم أقف على القائل.

اصمت وإن تأب فانطق شطر ما سمعت أذناك فالفم نصف اثنين في العدد

إنها دعوة إلى السلبية والعزلة، لا تتناسب مع ما نعرفه عن المعري من غزارة في الإبداع؛ فإذا كان أبو العلاء يؤيد الصمت حقا، فما معنى هذا النتاج الغزير، وهذا التناول للموضوعات المثيرة، أليس هذا تأييدا عمليا للكلام ؟ وماذا تعني الدعوة إلى الصمت إذا كان هو من أبعد الناس استجابة لها. هل هو تغير في الرأي؟ أو تفاعل مع حالات ومواقف معينة؟ أغلب الظن أن دعوته هذه هي تعبير عن خيبة أمله ويأسه من الناس، وأسفه لما يلاقيه من ردود أفعالهم، وعدم تقبلهم لأفكاره، وكأنه يقول لو صمت لسلمت، ولكني لن أصمت، لأنه لا ينبغي لمن هو مثلي أن يفعل ذلك. أو لعله كان يقاوم إغراء القول، فهو يريد أن يبوح بأكثر مما باح به، ولكنه يخشى عاقبة ذلك، فهو يذكر نفسه بأن السكوت ضرورة لا مناص منها وأن هناك حدودا لا يمكن أن يتجاوزها إن أراد السلامة والنجاة، ولاسيما أنه لا فائدة ترجى من وراء ذلك. فالناس أقل من أن يستوعبوا ما يريد قوله، أو يستفيدوا منه. ومن هنا فإننا نظن أن دعوته هذه جاءت من منطلق اليأس من الناس، وسوء الظن بهم وبقدرتهم على فهم ما يقول وتقديره. يؤيد ذلك قوله: [١٩،ج٢ص٥٢٧]

ألم ترني حميت بنات صدري فما زوجتهن وإن عنسنه
ولا أبرزتهن إلى أنيس إذا نور الوحوش به أنسنه
ولم أر في جلاس الناس خيرا فمن لي بالنوافر إن كنسنه

وقوله: [١٩،ج١ ص٤٤٦]

لا تخبرن بكنه دينك معشرا شطرا وإن تفعل فأنت مغرر
واصمت فإن الصمت يكفي أهله والنطق يظهر كامنا ويقرر

وقوله: [١٩،ج١ ص٤٦٩]

اسكتْ و خَلّ مُضِلَّهم وشؤونَهُ ليسوقَهم بعصاه،أو بحُسامِهِ
نُصحوا فما قَبِلوا وباعُوا كِثكِثاً من شرّ معدِنه، بقيمَةِ سامه
فكأنّهم غنمٌ ترُودُ، أسامَها مَن لا يُبالي كيفَ حالُ مَسامه

والصمت في مثل هذه المواقف وما يشابهها، أسلوب من أساليب التعبير يرى صاحبه أنه أبلغ من الكلام"سكوتي بيان عندها وخطاب"، فهو ليس تأييدا للصمت، ولكنه تفعيل لطريقة أخرى أكثر تناسبا مع الموقف، فقد يكون الغرض منه الاحتجاج، وقد يكون ناتجا عن التعالي على الغير، أو اليأس منهم. وربما كان من الأسباب التي دفعت بعضهم إلى ذلك أنهم لاحظوا أن الصوت السائد هو صوت واحد، وهو صوت السلطة المهيمنة، سواء كانت هذه السلطة سياسية أو اجتماعية أو دينية. كما لاحظوا أن الكلام المتاح هو الذي يصب في هذا الاتجاه، وأن الذين يمتلكون الشجاعة للوقوف ضد هذا التيار هم قلة نادرة، وقليل منهم من يمتلك الحكمة إلى جانب الشجاعة. فلا فائدة إذا من كلام هو أشبه بالصمت، أو لعله يكون أسوأ من الصمت؛ والأصول التي بني عليها رأي هؤلاء تختلف عن الأصول التي بني عليها رأي المقتنعين بالصمت؛ لأن دعوتهم إلى الصمت لم تكن عن قناعة بأفضليته، ولكنها رد فعل ناتج عن خيبة الأمل أو الشعور بالعجز. وربما لم ينتبهوا، أو لم يقتنعوا بأن المزيد من السكوت سيؤدي إلى المزيد من الكلام الموجه، والمزيد من هيمنة الصوت الواحد، وبدلا من التحفيز والحث على الكلام المبدع الخلاق آثروا أسهل الأمرين، إما يأسا من الناس، وإما لأنه لم يخطر على بالهم أن النتيجة ستكون أسوأ مما فروا منه.

وأخيرا فإن مما يلاحظ أن أكثر الأسباب والحجج التي يحتج بها مفضلو الصمت إنما تعود إلى ما يرونه من عيوب الكلام ومخاطره. فقد رأوا أنه من الأفضل ترك الكلام لأنه يمكن أن يؤدي إلى نتائج سيئة. وقد نتساءل لماذا لم يكثر الحديث عن النتائج السيئة للصمت ؟ والإجابة على ذلك هو أن الكلام مظهر محسوس، وفعل ملموس يسهل اقتناص عيوبه وأوجه قصوره وإبرازها على وجه التفصيل. أما السكوت فإنه عدم؛ لذلك فإن معايبه لا تبدو غالبا إلا على وجه الإجمال. فبإمكان الإنسان أن يتحدث عن أمر قائم ويبين محاسنه وعيوبه، ولكنه لا يمكن أن يتحدث بالسهولة نفسها عن شيء غير موجود .

مواقف متفاوتة

كان الذين يؤيدون الكلام أكثر تحفظا في مواقفهم؛ فلم ألاحظ وجود أصوات تنادي بإطلاق العنان للقول دون قيود، في حين كان هناك من يدعو إلى الصمت المطلق. وليس من السهل ضبط المواقف بدقة، فوجهات النظر كما لاحظت تختلف بحسب توجه صاحبها وثقافته والظروف المحيطة به. ويمكن أن تختلف وجهة نظر الشخص الواحد من حالة إلى أخرى. وباستثناء الذين يميلون إلى أحد الاتجاهين بصورة واضحة، فإن هناك من بدا أن موقفه كان وسطا ، فيرى أن الأفضل في كل حالة هو ما يناسبها، وأن لكل موقف مزيته. ومن هؤلاء عروة بن أذينة: : [٤،ج١٨ص٣٢٥]

إني لأنطق فيما كان من أربي وأكثر الصمت فيما ليس يعنيني

وعبدالله بن المبارك: : [٣،ج٢ص٢٢١]

صموت إذا ما الصمت زين أهله وفتاق أبكار الكلام المختم

ومحرز بن علقمة: : [٨،ج١ص٦٩]

صموت في المجالس غير عيٍّ جدير حين ينطق بالصواب

وهناك من يرى أن الصمت أفضل ، لكن إن كان ثمة مصلحة فلا بأس بالكلام

يقول منصور الفقيه : [٧،ج١ص٨٠]

عليك السُّكوت فإن لم يكن من القول بدٌّ فقل أحسنه

فرَّبتما فارقت بالّذي تقول أماكنها الألسنة

ويقول أبو العتاهية : [٧،ج١ص٨١]

عليك بما يعنيك من كلّ ما ترى وبالصَّمت إلاّ عن جميلٍ تقوله

ويقول عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر: [١٨،ص٢٧٧]

والزم الصمت إن في الصمت حكما وإذا أنت قلت قولا فزنه

ويقول ابن حبان :"الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم ، فما أكثر من ندم إذا نطق، وأقل من يندم إذا سكت." [٢٣،ص٤٣]و"قيل لبعضهم: السكوت أفضل أم النطق؟ فقال: السكوت حتى يحتاج إلى النطق، فإذا احتيج إلى النطق فالسكوت حرام. وقيل ليونس بن حبيب: السكوت أفضل أم الكلام؟ فقال: السكوت عن الخنا أفضل من الكلام بالخط." [٨،ج١ص٦٩] وهذا الموقف لا يرى الأفضلية المطلقة للصمت ، وإن كان يشيد به، ويراه حكمة وزينة وسترا.

وقد لا تكون هذه الأقوال معبرة دائما عن مبدأ ثابت لا يتغير ولا يتبدل، بل مواقف آنية،

وليدة حالة أو ظرف معين. ويبرز هذا بشكل أكبر عند الشعراء، الذين من المفترض أنهم أكثر انفعالا وتفاعلا مع المواقف المثيرة. ولكن يبقى لكل إنسان جذوره الفكرية وتكوينه الثقافي، ودوافعه الخفية التي تجعله يميل إلى هذا الموقف أو ذاك.

مما سبق يمكن أن نلاحظ أن الدعوة إلى الصمت كانت هي الأقوى، وأنها ازدادت قوة ورسوخا مع مرور الزمن، فلم نر مناصرا للكلام في الفترة الأخيرة من العصر العباسي بحجم الجاحظ، في حين برزت شخصية مؤثرة كأبي حامد الغزالي، وانبرت بقوة لتأييد الصمت، وبينما كان مؤيدو الصمت يعتمدون غالبا على سرد الأقوال من دون مناقشة، كما عند ابن أبي الدنيا، إذا بهم يطيلون النقاش والمحاجة ،كما رأينا عند الغزالي. كذلك نرى علماً من أعلام الأدب كأبي العلاء المعري يكرر الدعوة إلى الصمت، يأسا من الناس، أو ترفعا عليهم. كل هذا يشير إلى ارتفاع صوت مؤيدي الصمت، الذي كان عاليا من الأصل. وهذا الاتجاه نحو تأييد الصمت لابد من أن يترك آثارا سلبية على حرية الكلمة، والنشاط الفكري والإبداعي. فلا يمكن أن تذهب هذه الدعوة أدراج الرياح، وتمر دون أن تترك بصماتها على الحياة السياسية والفكرية والأدبية التي أخذت تتجه نحو الضعف شيئا فشيئا. فكان أبو العلاء آخر القمم الأدبية، وكانت الأمة في الفترة التالية لوفاته أكثر ضعفا، وغزيت وهزمت لأول مرة في عقر دارها. وازدادت الهوة بين الحكام وعامة الناس، وأغلق باب الاجتهاد في الدين، وخفت صوت الإبداع، وغلب التقليد على الأدباء. وكأن دعوة أبي العلاء إلى الصمت تنبؤ بجفاف نهر الإبداع، وبما ستؤول إليه الحال من ضعف وتخلف. لقد تحولت الدعوة إلى الصمت أحيانا من دعوة إلى ترشيد الكلام، إلى فكرة تثبيطية تتلبس بلباس الحكمة أو الدين، وتقوم على بث الخوف في نفوس المصلحين ، وتضرب حصارا على المبدعين، وترمي إلى هيمنة صوت واحد على المجتمع. وكان هناك نوع من التحالف الخفي، أو التشابه في المنطلقات بين الدعوة إلى الصمت وبين معارضة التجديد؛ فإذا ما أخذنا الصمت بمعناه الأوسع، بحيث يشمل الصمت النسبي، الذي لا يعني عدم الكلام مطلقا، بل يعني الالتزام بالسائد، الذي لا يكسر العرف الجاري، ولا القواعد المألوفة، فسنرى أن هناك معارضة للإبداع من كلا الطرفين؛ لأن النتيجة في النهاية هي إيثار السلامة من النقد، والتخلي عن الإبداع، والخوف من الخروج على المألوف. ومعلوم ما واجهه دعاة التجديد في أوائل العصر العباسي من معارضة قوية، وما واجهه آخرون ممن خرج عن المألوف من عنت وتضييق، انتهى بكتبهم إلى الإتلاف،(١٦) وانتهى بهم أحيانا إلى السجن أو القتل. وإذا كان الخوف من التعرض للنقد سببا من أسباب إقدام أبي حيان التوحيدي، على جلالة قدره، وعلو منزلته، على إحراق كتبه ، فما بالك بمن لم

يبلغ منزلته، أو بمن كان في أول الطريق من الناشئين الذين ربما أدى بهم الخوف من النقد إلى كبت إبداعهم، ووأد ملكاتهم. ولقد كان لقوة الدفع الحضاري في القرون الأولى التأثير الأكبر في نمو حركة الإبداع وتغلبها على العقبات، في حين أن الأمر لم يعد كذلك في أواخر العصر العباسي وما بعده؛ حيث اتجهت الحياة نحو الركود، وزادت قوة التيار الانسحابي. ولا يعني ذلك

---

(١٦) حوادث إتلاف الكتب أو إحراقها عديدة، ولأسباب متفاوتة. انظر مثلا: الذهبي، سير أعلام النبلاء [١٥،ج٢٢ص٥٦]. والمقري، نفح الطيب [١٠،ج٢ص٥٩٣]و[ج٣ص١٩٢].

أن هذه الآثار السلبية قد حدثت كلها بسبب علو صوت الصمت، لأن هذا أمر تشترك فيه عوامل شتى، وعلو صوت الصمت هو واحد منها، فهو جزء من المنظومة الثقافية التي سيطرت على الأمة، وأدت إلى ضعفها وتخلفها، وأثر من آثار حركة التخويف والتثبيط التي قضت على روح الجرأة والمغامرة في مجالات عديدة، حتى أصبح العالم لا يجرؤ على إصدار فتوى تناسب زمانه ما لم يكن هناك من سبقه إليها من الأولين. فالدعوة إلى الصمت سبب للضعف، ونتيجة له في الوقت نفسه.

خاتمة

منذ العصر الجاهلي كان هناك إشادة بالفصاحة والقدرة البيانية، وفي المقابل كان هناك خوف من عثرات اللسان، وعجزه عن التعبير، وتخوف مما يترتب على الكلام من تبعات. وازداد هذا الأمر بعد ظهور الإسلام وتطور الحياة الثقافية، ودخول متغيرات جديدة؛ فنتج عن ذلك اتجاهان أحدهما يؤيد الكلام، ويرى أنه الوسيلة التي لابد منها للتعبير عما في النفس، والأداة التي يتم من خلالها تبادل الآراء وتبليغ الأفكار والدعوات، ويرى أن الصمت أمر سلبي، وعلامة على العجز والقصور. وكان الاتجاه الآخر على النقيض من ذلك، فهو يرى أن الصمت حكمة وسلامة، وأن الكلام مليء بالشرور، ومثير للمشكلات، وخطر على الإنسان في دينه وحياته، وأنه يعرض الإنسان للامتحان والسقوط أمام الملأ. ونتج عن هذين التوجهين نصوص كثيرة، صورت الجدل القائم، والمنطلقات التي بني عليها. وكان الجاحظ من أبرز أصحاب الاتجاه الأول، ويقابله في الضفة الأخرى ابن أبي الدنيا وأبو حامد الغزالي. وقد كان المنطلق الديني هو الأساس عند كلا الطرفين، لكن الجاحظ كان أكثر توظيفا للحجج العقلية، وأقل اندفاعا في تأييد رأيه من أصحاب الاتجاه الآخر، فقد دافع عن الكلام، وبين مزاياه، ولكنه في موضع آخر حذر من آفات المنطق وعثرات اللسان. أما أصحاب الاتجاه الثاني فقد أيدوا الصمت بقوة، ودعموا آراءهم بحشد الكثير من الأقوال والحكايات التي غلب عليها الضعف. ووصل الأمر بالغزالي إلى أن أسقط ثلاثة أرباع الكلام، وعدها مما لا خير فيه؛ ورأى أن في الربع الباقي خطرا كبيرا. أما أبو العلاء المعري فقد أيد الصمت لا إيمانا بأفضليته؛ بل يأسا من الناس، أو ترفعا عليهم، أو حذرا منهم. ووقفت فئة أخرى موقفا وسطا؛ فرأت أن لكل مقام مقالا، ولكل موقف ما يناسبه. ولم تكن تلك المواقف دائما بريئة من دوافع خفية، تقف وراء تأييد هذا الموقف أو ذاك. وقد كان تفضيل الصمت أوسع نطاقا، وأكثر أنصارا، وازداد قوة مع مرور الزمن، وضعف الأمة، وانحدارها نحو السلبية والتقليد، فكان لذلك أثره في خفوت صوت الإبداع، وتقلص نطاق العدالة، وهيمنة الصوت الواحد.

المراجع

[١] النيسابوري، مسلم بن الحجاج، *صحيح مسلم*، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، إستانبول،دار الدعوة، ١٤٠١هـ.

[٢] الكناني، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، *البيان والتبيين*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار الفكر، ط الرابعة، دت .

[٣] ابن عبدربه، أبو عمر أحمد بن محمد، *العقد الفريد*، شرح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، بيروت، دار الكتاب العربي،١٤٠٢هـ.
[٤] الأصفهاني،أبو الفرج علي بن الحسين، *الأغاني*، بيروت، مؤسسة جمال، دت، الأجزاء١-١٦ مصورة من ط دار الكتب المصرية، و١٧-٢٤ من ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحقيق لجنة نشر كتاب الأغاني.
[٥] الأبشيهي، أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد، *المستطرف في كل فن مستظرف*، بيروت، دار إحياء التراث العربي،١٣٧١هـ..
[٦] ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، *عيون الأخبار*، بيروت، دار الكتاب العربي، مصور عن ط دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ.
[٧] ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد، *بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن الهاجس*، تحقيق محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت،ط الثانية،١٤٠٢هـ.
[٨] الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد، *الراغب، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء*، بيروت، دار مكتبة الحياة، دت.
[٩] ابن برد، بشار، *ديوان بشار بن برد*، شرحه ورتبه مهدي محمد ناصر الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ .
[١٠] المقري، أحمد بن محمد، *نفح الطيب*، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٣٨٨هـ.
[١١] الكناني، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، *رسائل الجاحظ*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون،القاهرة، مكتبة الخانجي، دت.
[١٢] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، *إحياء علوم الدين*، بيروت، دار الندوة الجديدة، دت.
[١٣] ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، *الشعر والشعراء*، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار المعارف، ط الثانية، د ت.
[١٤] الحموي، ياقوت بن عبدالله، *معجم الأدباء*، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د ت.
[١٥] الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، *سير أعلام النبلاء*،تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، بيروت،مؤسسة الرسالة، ط الثانية،١٤٠٢هـ.
[١٦] السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبدالرحمن، *حسن السمت في الصمت*، تحقيق، أبو هاجر محمد السعيد زغلول،بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى ١٤٠٧هـ.
[١٧] ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبدالله بن محمد، *الصمت وآداب اللسان*، دراسة وتحقيق محمد عبدالقادر عطا،بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط الأولى ١٤٠٩هـ.
[١٨] ابن منقذ، أسامة، *لباب الآداب*، بيروت، دار الكتب العلمية،١٤٠٠هـ.
[١٩] المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان، *اللزوميات*، بيروت، دار صادر، د ت.
[٢٠] ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي، *أخبار الحمقى والمغفلين*، بيروت، مكتبة العزالي.
[٢١] الكناني، أبو الحسن علي بن محمد، *تنزيه الشريعة المرفوعة*، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف وعبدالله الصديق، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الثانية ١٤٠١هـ.
[٢٢] العسكري، أبوهلال الحسن بن عبدالله، *جمهرة الأمثال*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبدالمجيد قطامش، دار الفكر، ط الثانية ١٩٨٨م.

[٢٣] البستي، أبو حاتم محمد بن حبان، *روضة العقلاء*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد وآخرون، مكة المكرمة، دار الباز للنشر والتوزيع، د ت.
[٢٤] الوشاء، أبو الطيب محمد بن إسحاق، *الموشى أو الظرف والظرفاء*، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ.
[٢٥] الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، *مجمع الأمثال*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،القاهرة، عيسى البابي الحلبي، د ت.
[٢٦] الشافعي، الإمام محمد بن إدريس، *ديوان الإمام الشافعي*، جمع محمد عفيف الزعبي، حمص وجدة، مكتبة المعرفة ودار العلم، ط الثالثة.
[٢٧] الحاكم، أبو عبدالله محمد بن عبدالله، *المستدرك على الصحيحين*، دار الكتب العلمية، د ت.
[٢٨] البيهقي، إبراهيم بن محمد، *المحاسن والمساوئ*، بيروت، دار بيروت،١٣٩٩ هـ.
[٢٩] البكري، أبو عبيد، *فصل المقال في شرح كتاب الأمثال*، تحقيق إحسان عباس، بيروت مؤسسة الرسالة، ط الأولى ١٩٧١م.
[٣٠] بدران، عبدالقادر، *تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر*، بيروت، دار المسيرة، ط الثانية، ١٣٩٩هـ.
[٣١] التوحيدي، *الإمتاع والمؤانسة*، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت، المكتبة العصرية، د ت، مصور عن طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
[٣٢] ابن حنبل، الإمام أحمد، *مسند أحمد بن حنبل*، إستانبول، دار الدعوة، ١٤٠٢هـ.
[٣٣] التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، *أخلاق الوزيرين*، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، بيروت، دار صادر١٤١٢هـ.
[٣٤] القلقشندي، أحمد بن علي، *صبح الأعشى*، تحقيق محمد حسين شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤٠٧هـ.

"Speech" or "Silence"?: The Controversy of Expression in Arabic Tradition

D. Abdullah Salem Alkhalaf
Assistant Professor, Arabic Department
Collage Of Science &Art in Arrass, Qassim University

(Received 23/2/1430H.; accepted for publication 9/7/1430H.)

Abstract. Freedom of speech has played a predominantly significant role in present-day culture. Considered one of the basic human rights , it has featured prominently in most countries constitutions. Recognizing the importance of the dialogue between past and present, this study aims to investigate how Arabic predecessors viewed the issue via debating the values of Speech and Silence.

Traditional Arabic thinkers, critics and jurists held conflicting perspectives regarding :Which is more valuable Speech(to publicly express one's ideas) or Silence(keeping one's ideas unvoiced) ?. The Speech supporters led by Abu U'thman Al-Jahith maintained that Speech is a great endowment by God without which human beings would have lost most or all of their past knowledge and civilization attainments. On the other hand, the Silence group-led by Abu Al-Dunia- was far and away the largest among cultural traditional writers. These saw Silence as much more valuable than Speech. Abu Al- Dunia devoted a whole pamphlet to supporting the validity of his stance whilst Imam Al-Ghazali had it that, Speech is, far and for most, useless(70% nonsense and the remainder is not free of "danger"). Other evidence for Silence comes from poetry and literary prose. In addition, there were moderates who stood somewhere in the middle and neutrals who merely cited both sides' positions.

Attracting the largest group of writers , Silence had, thus, dominated the traditional cultural scene. It, therefore, seems reasonable to argue that, religious , political and social fears and worries constituted both the main source of, and argument for Silence.